
جامعة الدول العربية
مركز الدراسات العربية العالية

محاضرات
في
اللهجات وأسلوب دراستها

ألقاها

الدكتور

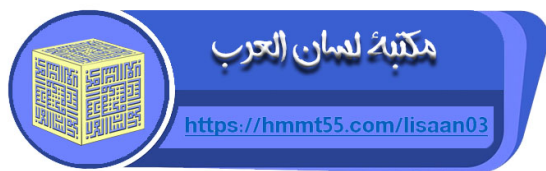
أنيس فريحت

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٥

١٩٥٥

اللهجات وأسلوب دراستها



مقدمة

إن قضية « الفصحى والعامية » من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ، في مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة .

ذلك لأن الفصحى لا يعرفها إلا المثقفون ، ولا يتخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء ؟ وأما العامية الدارجة ، فهي كثيرة الأنواع ، تختلف اختلافاً بيناً لا من قطر إلى قطر فحسب ، بل من مدينة إلى مدينة في القطر الواحد أيضاً . حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة ، ومن جماعة إلى جماعة ، في المدينة الواحدة ، في بعض الأحيان

إذن ، فنحن — عرب اليوم — بين لغة فصحى ، يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ؛ وبين لغات عامية عديدة ، يتفاهم بكل منها جميع الناس ، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية .

ولا حاجة إلى القول . بأن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة :

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة « موحدة » ، تزيدها تجاوباً وتماسكاً ، فتكون « موحدة » .

لأن مهمة اللغة — في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية — لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد ، أو قطر واحد ، بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتخاطب والتجاوب . . بين جميع أبناء الأمة ، على اختلاف مدنهم وأقطارهم .

والتاريخ الحديث ملئ بأمثلة بليغة ، على الجهود الجبارة التي بذلها — ولا يزال يبذلها — عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل ، قوطنة لاستقلالها ، أو ضماناً لوحدةها .

(ب)

فنحن العرب نفتقر اليوم إلى « لغة » يتفاهم بها جميع الناس ، في جميع الأقطار العربية .

ولكن ، ما السبيل إلى ذلك ؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية ، والتعميم بنعمة « لغة موحدة وموحدة » ، في جميع الأقطار العربية ؟

إذا تأملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد ، خطر على بالنا ثلاثة سبل أساسية :

(أ) السعى وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة — أى لهجة من اللهجات العامية — على جميع البلاد العربية ؟

(ب) السعى وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، في كل قطر من الأقطار العربية .

(ج) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية ، على أساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى — أى طريقة تعميم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية — غير منطقية وغير عملية . فلا بد من التوجه إلى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة وأسس متينة ، ويمثلون أقوياء ، فى جميع البلاد العربية . ولذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش فى الطريقتين الأخيرتين وحدهما :

من المعلوم أن قواعد الفصحى : فى حالتها الحاضرة ، معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعداً كبيراً . فيجدر بنا أن نتساءل : هل من الضروري أن نتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعها أو درنها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا أن نصرف قوانا فى سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والأساليب ؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ، ونشذبها تشذيباً معقولاً ، يكسبها شيئاً من السهولة ، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة

باللغة النصحي تطعما يبعدنا عن حذقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس ،
في وقت واحد ، فيوصلنا إلى فصحي متوسطة ، معتدلة ؟ أفلا يحسن بنا
أن نلجأ إلى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير
والتقدم نحو الفصحى التامة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة — إجابة صحيحة — تتطلب القيام بأبحاث
علمية واسعة النطاق ، تناول اللغة النصحي واللغات الدارجة في وقت واحد ،
وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

أولا ، يجب أن نبحث : ما هي الحدود الفاصلة بين النصحي وبين العامية ؟
ما هي الفروق التي تميز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية لفظها
من ناحية ، ومن حيث التركيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفي أمر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقواميس
المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب أن نفكر في ذلك ملياً ، لأنه من المعلوم أن تلك
المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد يشعر بحاجة
إلى استعمالها ، ومقابل ذلك أنها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التي
استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الأدباء والعلماء في أهم آثارهم العلمية والأدبية ،
كما أن الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معان تختلف عن
المعاني التي كان قد درنها القدماء كل الاختلاف ؛ فلا بد لنا من أن نبحث عن
معيار آخر يساعد على تمييز النصيح عن العامي تمييزاً معقولاً .

وفي أمر القواعد : هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول
الفصل فيها ؟ أفم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل
والترجيح ؟ أفلا يحقق لنا أن نعيد البحث والنظر في تلك الأقوال والآراء ،
وأن نسلك مسلكاً يختلف عن مسالكهم في أمر التجويز والتفضيل ؟ وهل يتحتم
علينا أن نسعى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بخلافها ؟ أفلا يمكننا أن
نستغنى عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيداً وأكثر قابلية لانتشار ؟
وفي الأخير ، ولو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، أفلا يجب

علينا أن نرتبها ترتيباً معقولاً ، لنقدم الأهم على المهم . ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا ، التفصيحية ، ؟

* * *

ثانياً : يجب علينا أن ندرس اللغات العامية dialects واللهجات المحلية patois ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية : ما هي أنواعها ؟ وما هي خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير ؟ وما هي حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والأساليب والتعابير ؟ وما هي أسباب اختلاف هذه اللهجات عن النصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ، ألا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ ألا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشاركة ؟ ألا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشاركة على وجود درافع عامة وضرورات مشتركة ؟ أفلا يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع والحاجات لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان ؟

* * *

إن كل هذه الأمور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام . وفضلاً عن ذلك كله يجب علينا أن نتبع التطورات التاريخية أيضاً : من المعلوم أن اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعاً لنمو الأفكار وتنوع الحاجات . فإن لكل كلمة ، وكل أسلوب ، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخ طويل أو قصير ، ماض قريب أو بعيد .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً — منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مثلاً — تكفي للتأكد من صحة ما قلناه آنفاً : لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدراوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات . في جميع البلاد العربية فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة

مشتقة من أصول فصيحة ، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية . معظم هذه الكلمات المقتبسة ، كانت فرنسية في بعض البلاد العربية ، وانكليزية في بعضها الآخر ، وأسبانية في بعضها وإيطالية في بعضها الآخر ، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة أخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الأجنبية وإستبدالها بكلمات عربية .

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى إلى حدوث تغير محسوس في أوضاع اللغات المحلية وفي التعابير العامة أيضاً : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية ، كما أن لغة عامة الناس أيضاً أخذت تهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وإزدهار الصحافة ، وتعرب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالى إذا قلنا ، إنه أخذاً يتكون في بينات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامة .

فيحسن بنا أن تعمق وتوسع في دروس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستشير في تقرير خططنا الإصلاحية .

يتبين من كل ما تقدم ، أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ؛ بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب علينا أن لاننسى أن علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ، ودنوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا أن نفتدى

هم في هذا المضمار : فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، في المدن والأرياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والأطفال .

ولا يجوز لنا أن تتعاس عن العمل في هذا السبيل بحجة « الاكتفاء باللغة الفصحى » ؟ إذ يجب علينا أن نعلم العلم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نوااميسها ..

إن معهد الدراسات العربية العالية قد أدخل في برامجه أمر دراسة « اللغات العربية الحالية » (بناء على الملاحظات الآتية الذكر)

والغاية القصوى منها ، هي اعداد الأبحاث العلمية اللازمة لاستكشاف أنجع السبل لجعل لغة الضاد « موحدة وموحدة » ، في جميع البلاد العربية .

إن محاضرات الدكتور أنيس فريحة — التي تقدمها اليوم — هي مقدمة

لهذه الدراسات

١٩٥٥ / ٢ / ١٩

أبوخلدون

ساطع المصري

مقدمة

يحسن بنا ، ونحن في هذه الغمرة من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أن نعيد النظر في تقييم الأشياء ، حتى وإن كانت هذه الأشياء من الحرمات والمقدسات . لأن على الأمة الناشئة التي تبنى للحياة أن تدرس على حقائق ، إذ لا يحجر الفكر سوى الحقيقة .

واللغة من الأمور التي ينبغي لنا أن نعيد النظر فيها . فاللغة أساس الفكر وطريق الإنسان لإدراك الكون . ولكن تفكيرنا اللغوي لا يخرج عن نطاق التاريخ والتقليد ، ونظرتنا إلى اللغة لا تتعدى حدود العاطفة . ورغم أن العرب اليوم يحاولون أن يجابهوا قضاياهم الاجتماعية والسياسية بروح الموضوعية العلمية نراهم في قضايا اللغة يثرون العاطفة ويحكمون القلب . ولكن اللغة شأنها شأن كل مؤسسة بشرية أخرى تخضع للكم والكيف ، وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظرهم إلى أية مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم .

وإنني أشعر باعتزاز وفخر أن أُميتحَ إلى معهد الدراسات العربية العالية فرصة إثارة قضية اللغة ودرستها على صعيد الفكر . ففي هذه المحاضرات القليلة العدد سنعيد النظر في تعريف اللغة وتطورها وتجزئتها إلى لهجات محكية وأسلوب دراسة هذه اللهجات دراسة تقريرية وصفية (descriptive) وسنخصص لهجة لبنان بأكبر نصيب من البحث .

وموضوع اللغة الأدبية والمحكية موضوع خطير ، ولكنه حساس مثير . ولا غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية . ولست أشك في أن ما أقوله خروجاً على المألوف في تفكيرنا اللغوي . ولكنني موقن أنكم ستقبلون هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم .

أنيس فريخ

مشكلاتنا اللغوية

تقتصر مشاكل اللغة العربية الأساسية في خمسة أمور :

- (أ) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى .
 - (ب) تقييد الفصحى بأحكام شديدة .
 - (ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (vowels) .
 - (د) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون .
 - (هـ) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب قديمة .
- (أ) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى :

مشكلتنا اللغوية الأولى مشكلة كل شعب مزدوج اللغة (bilingual) .
فإننا نفكر وتكلم ونغنى ونتمتع صلواتنا وتناغى أطفالنا ونهمس في آذان من
نحبهم وتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم ، وننشأ مع من يروق لنا
أن نشأ معهم بلغة محكية سلسلة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا
جهداً . ولكن عندما نقف مواقف رسمية — كأن يكون أحدنا معلماً
أو واعظاً أو محامياً أو محدثاً في الإذاعة أو محاضراً في قاعة الدرس — علينا أن
تلبس شخصية لغوية ثانية . علينا أن نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة اليومية ،
معرّبة شديدة الأحكام في التركيب والتعبير . واللغة هي الفكر أو أساس
الفكر ، فإننا نفكر بوساطة اللغة ، وإذا أدركنا الأمور فإننا ندركها
بوساطة اللغة ، وإذا تصورنا الأشياء فإننا نتصورها بوساطة اللغة ،
وإذا انتقلت إلينا اختبارات الإنسانية فإنها تنتقل إلينا بواسطة اللغة . فاللغة
عنصر من عناصر الحياة الإنسانية وهي جزء من جهازنا العصبي البسيكولوجي .
وهنا يقع التناقض ، فإن علينا ، في المواقف الرسمية أن نتكلم وأن نكتب
لغة وقفت في تطورها عند نقطة معينة في الزمان والمكان .

أما لغة الناس التي لم يُسَيِّج حولها بسياج من الأحكام الشديدة ، فقد تجزأت إلى لهجات محكية ، يسرتها الحياة وصقلتها الأيام .

(ب) تفسير الفصحى بأصطاحم شديدة : *تكملة مع لسان العرب*

واللغة لا تقيد . اللغة مجرى . غير أن منزلة اللغة العربية في الدين والقومية قضت أن يُسَيِّج حولها بسياج من الأحكام والقواعد . وشأن العربية في هذا شأن كل لغة أخرى يحرص أهلها على حفظها من التجزؤ والتفكك وقد تأثر قدامى اللغويين بأصول المنطق الإغريقي وخاصة بفلسفة أرسطو اللغوية . فإنه — أرسطو — كان يرى أن للغة تركيباً خاصاً وهذا التركيب هو المنطق السليم . فراح يضع للغة صرفاً فلسفياً (Philosophical grammar) مبنياً على العلة والمعلول والعامل والمعمول والتقدير والإضمار والأفراض . وأنت إذا درست فلسفة النحو العربي وجدت أنه لا يخرج بجوهره عن فلسفة أرسطو في اللغة إن من جهة التبويب أو من جهة التعليل وقد حاول لغويو العرب أن يوجدوا ناموساً عاماً لجميع المظاهر اللغوية وحاولوا أيضاً أن يجدوا منطقاً للغة . ولكن اللغة لا تخضع لنواميس عامة ثابتة ، ولا تخضع لقوانين المنطق . ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الأحكام ، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ .

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (vowels)

فإن العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتضت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلًا عظيمًا لا حياة له . وهذا يجعل عملية القراءة أمراً عسيراً إذ تفرض هذه الطريقة في الكتابة — كتابة الحروف الصامتة فقط على القارئ أن يفهم أولاً ، كما قال قائم أمين ثم أن يقرأ قراءة صحيحة ثانياً . وهذا على نقيض الغاية من القراءة فإننا الشعب الوحيد الذي يجب أن يفهم ليقراً بينما جميع شعوب الأرض تقرأ ففهم . كان ولد يقرأ على أستاذه نهلاً خالياً من الحركات . فأتى على كلمة

« فستكون » فوقف التليذ أمام هذا الهيكل العظمى الميت حائراً لا يدري كيف يتلفظ به وبعد محاولات عدة قرأها فستكون (FSTKWN) فكانت نكتة ضحكنا منها كثيراً . ولكن الطالب قرأ واحدة من الإمكانيات التي تعد بالمئات ، وإن كنت في شك من ذلك سل مدرساً في الرياضيات فإنه يعطيك القاعدة الرياضية !

وقد أدرك مجمع فؤاد الأول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والاقتصادية فوضع جائزة قدرها ألف جنيه مصرى لمن يقدم أفضل اقتراح ، أو لمن يرسم أفضل هجاء من شأنه تسهيل القراءة ، والمشكلة لا تزال قائمة .

(د) تفصير العربية عمر اللهاق بالعلوم والفنون

أود ذلك لأن معظم هذه التعابير الجديدة والمصطلحات المحددة معنى وإستعمالاً لم تكن يوماً من المعجم العربى ولم تكن من القضايا العلمية والفكرية التي عني بها الفكر العربى ، لأن الفكر العربى لأسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة ، فمن الطبيعي أن تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون .

لغة كل شعب مرآة حياته وبيئته . فإن لغة الأسكيمو الفقيرة بمفرداتها تصلح أن تكون أداة حسنة للتعبير عن حياة الأسكيمو وعن محيطه الجاف القاسى ، ومن يطلب من لغة الأسكيمو ، دون تعديل فيها ، أن تنقل حضارة الغرب اليوم بفكره وروحه وعلمه إنما يطلب المستحيل ، وكل من يعتقد أن العربية اليوم ، بحالتها الحاضرة ، وبالنسبة إلى ترمت بعض الناطقين بها ، تستطيع بدس أن تعبر عن مختلف العلوم والفنون واهم .

نعم ، إن اللغة العربية غنية بمفرداتها في نواح كثيرة ، عظيمة الإمكانيات في اشتقاقها وقياسها ، وقد استطاعت يوماً أن تنقل إليها حضارات الشرق الأدنى عن طريق الترجمة والتعريب والتوليد وإحياء مفردات قديمة وإسباغ المعاني الجديدة عليها ، ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الأخيرين

— وفي القرنين الأخيرين كنا نياما — كان سريعا فأفقنا ولغتنا قاصرة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة . }

(هـ) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب قديمة

إن تدريس اللغة العربية وقواعدها لا يختلف اليوم جوهر أ عما كان عليه في حلقات الكوفة والبصرة وفي مدرسة بغداد التوفيقية على يدى ابن الأنبارى . نعم ، قد يكون في بعض كتب القواعد شئ من التسهيل والتقريب والتبسيط والإكثار من الشرح والأمثلة ، إنما جوهر الأسلوب في تبويبه وفي مصطلحاته وفي تعليقه لا يختلف عن أساليب القدماء وتعليقهم . وكثيرة هي المحاولات التي قام بها صرفيون قدماء ومحدثون لتذليل النحو والصرف وتقريبه من أفهام الناس ، ولكن هذه المحاولات لم تمس الجوهر ولا عدلت في المصطلحات ولا خففت من إرهاب التعليل ، فكان من نتائج هذا الأسلوب النفرة التي نلاحظها عند طلاب العربية ، وهذا الضعف الذي يظهر في مستوى التلاميذ عند إنقضاء فترة الدراسة الثانوية . ولنا في الموضوع إقتراح نشرناه في الناس بشكل كتاب سميناه « تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي » . قبل به بعض الناس وسفه رأينا البعض الآخر .

* * *

هذه مشاكل اللغة العربية الأساسية ، وكل مشكلة منها تحتاج إلى دراسة عميقة وإلى حلول عملية . ونحن لانشك في أن بعض هذه المشاكل ميسور الحل وبعضها يحتاج إلى عنصر الزمن . وقد آثرنا استعراض المشاكل اللغوية استعراضاً مقتضباً سريعا في بدء المحاضرات لنرى إذا كان في درسنا العربية وتطورها ونشوء لهجاتها ما يعيننا على إيجاد الحلول الصالحة ، لأن حل أية مشكلة يتطلب تفهم المشكلة أولا ، وتوفير العزم والإرادة ثانيا .

ماهى اللغة

لن نجيب عن هذا السؤال الذى يبدو بسيطاً ، بتعريف جامع مانع كأن نقول : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، أو أداة للتفاهم ، أو وسيلة لنقل المعانى ، لأن صوغ تعريف على شامل للغة ليس بالأمر اليسير كما قد يتبادر إلى الذهن .

وقد يبدو ترددنا فى تعريف اللغة غريباً ، لأن اللغة ، من الأمور الطبيعية المألوفة التى يمارسها جميع البشر على اختلاف أجناسهم عفوياً . فإنها لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً . يستعملها الولد بيسر ، وهى عملية بسيطة كالمشى والأكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام . وهانحن نتكلم فى كل حالة من حالات الحياة وفى كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نأمن أو حالمين أو هاذين . فلماذا نقول إن تعريفها أمر شاق ؟

خذ هذا التعريف المكرر : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك : هل صحيح أن اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ؟ هل اللغة مجموعة أصوات ؟ هل فكرة « البيت » قائمة فى الأصوات التى تتألف منها اللفظة ؟ بكلام آخر ما علاقة أصوات حروف الكلمة ومعناها ؟ أليس المعنى قائماً فى الاختبار لا فى الصوت ؟ عندما نسمع لفظة « بيت » أليس الاختبار فى حنايا العقل وهو الذى يترجم الصوت إلى المعنى ؟ ولك أن تسأل هل كل صوت هو « لغوى » ؟ كلا . فأن هناك أصواتاً عديدة لا تدخل فى نطاق الأصوات اللغوية كالأصوات الطبيعية والحيوانية وبعض الأصوات التى نخرجها من بين الأسنان ، أو من الخيشوم أو من أقصى الحلق ، أو كالأصوات التى نحدثها بالتواءات مختلفة للسان ، هى جميعها أصوات لا تدخل فى نظام الأصوات اللغوية . إذاً علينا أن نحدد كلمة الصوت اللغوى .

وعلماء اللغة ، رغبة منهم في الدقة العلمية ، يطلقون على أصوات اللغة مصطلحاً علمياً : فونيم (وجمعها فونيمات Phoneme) أى الوحدة الصوتية للغة . ويعنون بالفونيمات مجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة . وتشمل الفونيمات عادة بحروف الهجاء ، ولكن حذار من أن نعتقد أن عدد الفونيمات في اللغة ينبغي له أن يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة . كلا ، فقد يكون للغة ما ٢٦ أو ٢٧ أو ٢٨ حرفاً هجائياً ولكننا إذا أحصينا عدد فونيمات هذه اللغة لوجدنا أنها تربو على عدد حروف الهجاء . ونمثل لك على هذا بفونيم «ث» في اللغة الإنكليزية فإنه عنصر من عناصر اللغة كما في Thin . ولكن هذا الفونيم لا رمز له (أى لا حرف له) بل يرمزون إليه بحرفي Th . وقل هذا في فونيم «ذ» فإنه عنصر من عناصر الإنكليزية كما في لقطة Mother ولكن فونيم «ذ» لا رمز له (أى لا حرف له) بل يرمزون إليه بحروف أخرى .

وفضلاً عن هذا فإن علماء الفونتيك يقولون لنا إن للفونيم الواحد أكثر من لفظ واحد . قد يكون له ثلاثة ألفاظ أو أربعة . فونيم p في كلمة Speak هو غيره في اللفظ في كلمة park . وقل هذا في فونيم t فإنه في sting غيره في teem . قد لا تستطيع أذن أو أذنك أن تميز بين لفظ وآخر للفونيم الواحد ولكن الآلة المسجلة والفونتيكي المجرب يستطيعان ذلك . وما قولك في هذه الفونيمات : aeio ؟ ألا تختلف لفظاً تبعاً لوقوعها في كلمات مختلفة ؟ هل الفونيم a في father وفي fat وفي female واحد في اللفظ ؟ ثم اعتبر الشق الثاني من التعريف : « اللغة أداة للتعبير عن الفكر » ، يقول لنا بعض البسيكولوجيين إن اللغة هي الفكر ذاته ، أو هي أساس الفكر وطريق الإنسان للفكر . ويؤكد بعضهم أننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات . فإذا قبلنا هذا التحديد — بأنها أداة للفكر — نكون قد فصلنا الفكر عن أداة التعبير عن الفكر ، وهذا مما لا يقبل به البعض .

وخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكولوجية ولنعد إلى صعيد أدنى ونسأل إذا قبلنا هذا التحديد ألا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون

ولكنهم لا يعبرون عن الفكر ، وألا نكون قد حقّرنا الفكر بإعتبارنا كل
ثروة تعبيراً عن الفكر ؟ عندما يغضب أحداً ، أو عندما تنهال من فيه
الشتائم والمسبات ، أو عندما نغنى ، أو عندما يحى بعضنا بعضاً ، أو عندما
نتكلم لأنفسنا ونحن سائرون في الطريق أو مستلقون على فراش ، هل في
هذه المواقف والشبهات بها ، تعبير عن الفكر ! ثم إننا أحياناً نرغب في
التعمية والتمويه والإخفاء وأداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا إنها لنقل
الفكر أو للتعبير عنه !!

لا نكران أن اللغة أداة للتعبير عن الفكر أحياناً . فالمحاضر يعبر عن
أفكاره بوساطة اللغة ، والمعلم في مدرسته ، والعالم في مختبره ، والنائب
في برلمانه ، والصحافي في مكتبته ، هؤلاء جميعاً يعبرون عن الفكر باللغة
ولكن حصر اللغة بأنها أداة للتعبير عن الفكر أمر بعيد عن الواقع

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة . وقد يكون
منشئها العاطفة والشعور لا الفكر . اللغة للغناء ، للشعر ، للاقاصيص ،
للاساطير ، للخرافات ، فهي بهجة ومتعة ، وهي متنفس عن حزن وألم .

فاللغة إذن أكثر من مجموعة أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة
للفكر أو تعبيراً عن عاطفة . اللغة جزء من كيانتنا البسيكولوجي الروحي
وهي عملية فيزيائية إجتماعية ببيكولوجية على غاية من التعقيد ، وتتناول
أربعة أمور أساسية لتقام العملية المعقّدة :

(١) متكلم

(ب) مخاطب .

(ج) أشياء أو فكر يتكلم عنها .

(د) كلمات أو مفردات (أو إشارات ملاحية أو يدوية) وهي مجموعة

فونيمات لها في الذهن صور معينة ، أى معان .

ولإيضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلاً بسيطاً لا يتبادر إلى أذهاننا أنه على شيء من التعقيد . تصور رجلاً يمشى في حقل مع ولده الصغير . يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهى فيقول لو والده : « أقطف لى يا بابا تفاحة » . وقد ينزل الوالد عند طلب ولده فيتناول تفاحة وقد لا ينزل عند طلبه فيقول : لا . التفاح ليس لنا ، للتفاح أصحاب . فلتحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية .

تبدأ العملية بالصور المرئية بعالم الأشياء المحيط بنا ، وهى العامل المؤثر فيشهى الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية إلى صورة كلامية تعبيرية : « أقطف لى يا بابا تفاحة » . كيف تحولت الصورة الذهنية إلى صورة صوتية تعبيرية ؟ أين كانت هذه الكلمات فى دماغ الولد ؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق ؟ ماذا جرى ، وكيف تم ؟ ثم إن هذه الأصوات التى فاه بها الولد إنتقلت إلى أذن الأب بوساطة تموجات فى الهواء أولاً ثم إلى دماغه ثانياً . كيف ؟ ماذا كان رد الفعل ؟ كيف فهم المخاطبُ المخاطبُ ؟ ماذا دار فى دماغ الوالد عند سماع الفونيمات ؟ وهل المعنى فى الصوت أم المعنى قائم فى الاختبار ؟ أى ما العلاقة بين الأصوات والمعنى ؟ وكيف توصل إلى حكم أولاً فى العقل ثم استحال الحكم إلى أصوات تعبيرية فقال له « نعم ، أو لا ، التفاح ليس لنا . ؟

هنا يتدخل البسيكولوجى ويقول : درس اللغة ليس من إختصاص علماء اللغة بل اللغة فرع من فروع علم البسيكولوجيا . اللغة « تصرف رمزى ، Symbolic behaviour ولا تفسر إلا على أساس المؤثر ورد الفعل . هاتان العبارتان : « أقطف لى تفاحه » و « التفاح ليس لنا » رد فعل ببيكولوجى ولا معنى لهاتين العبارتين إلا إذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذى نطق بهما . ثم أن البسيكولوجين أنفسهم ، إذا سلمنا أن درس اللغة من إختصاصهم يختلفون كثيراً فيما بينهم فى تفسير هذه الظواهر . فقد كان بعضهم إلى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسى أو الروحى ، أى أن هناك قوة روحية أو عقلية

أو نفسية غير مادية تحرك الإنسان . ولكن جلهم الآن يعلمون هذه الظواهر البسيكولوجية على أنها عمليات فيزيائية ميكانيكية : مؤثر ورد فعل وتلاؤم وتصرف رمزي .

ترون مما تقدم أن اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا إثارة أسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض . أما نحن فيهمنا من الأمر تقرير واقع : اللغة ظاهرة إجتماعية ببيكولوجية مكتسبة ،^(١) لصفة بيولوجية^(٢) ملازمة للفرد . وتتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن . وهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل . وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الإنساني ذروته . فدرس اللغة درسا فلسفيا علميا درس في الإنسان وفكره . وهذا أمر هام بالنسبة إلينا نحن العرب فاللغة عندنا أداة مركبة من أصوات، فكلمات فتراكيب بينما هي في الواقع جزء من كيانتنا العقلي الروحي . هي أكثر من أداة هي جزء من الحياة .

(١) إذا فصح طفل عن المجتمع فإنة لن يتكلم بل ينطق غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لهذه الأصوات معان ولكنها ليست لغة . وكذلك إذا نشأ طفل في محيط غير محيطه فإنه يكتسب لغة القوم الذين يعيشهم .

(٢) إن أعضاء النطق كالخلق واللسان والرئتين والحنجرة ، وغيرها كثير ، ليست للنطق أولا ، أى أن وظيفتها الأولى هي غير النطق بل لها وظائف جسمانية .

كيف نشأت اللغة ؟

لا نعلم على وجه التحقيق . أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الإنسان ذاته وبتطور جسمه وعقله . إذا قضية أصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة ولا تدخل في نطاق علم اللغة (Linguistics) بل في نطاق البسيكولوجيا والأنثروبولوجيا والفلسفة .

إن معرفتنا بتاريخ الإنسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الأخير ، ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فإن أصل الإنسان ونشأته من حيوان أبكم إلى حيوان ناطق ، من حيوان لا يعقل إلى حيوان عاقل ، لا يزال مكتنفًا بحجب من الأسرار ، ولكي نهتك هذه الحجب علينا أن نرجع إلى عهود سحيقة في القدم لا نعلم عنها شيئًا علميًا يقينًا ، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس أو خيال ، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات ، إلا إذا كانت افتراضات قيد البرهان .

ولكن أصل الإنسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال ويستأنف إلى العقل ونعتقد أن معرفة أصل اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الإنسان . فإن كاتب قصة الخليفة عزاهما إلى الله . الله علم آدم الكلام . وقد انقسم العرب إلى قسمين إزاء هذه المشكلة^(١) .

فقال جماعة إن اللغة توقيفية ، أى أن الله علمها للإنسان ، وقالت جماعة أنها اصطلاحية . وكان هم علماء اللغة ، منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى زمن قريب منا أن يتوصلوا إلى حل هذه المشكلة . ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة . وكثر القول فيها إلى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية

(١) ترى نموذجًا من هذا البحث في ابن جنى (أبو الفتح عثمان) في كتابه « الخصائص »

« باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح » . ص ٣٩ (مطبعة الهلال بانفجالة ١٣٢١)

وعنه أخذ عبد الرحمن جلال الدين السيوطى في « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » ص ١٧-٢٠ (دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة) .

Societe de Linguistique تمنع بقانون إلقاء محاضرات في هذا الموضوع ، لأن هذه النظريات — وسنذكر لكم تتفا منها — لا تفسر أصل اللغة . وقد كانت الجمعية اللغوية على شيء من الحق في منع الموضوع ، لأنه ، كما ذكرنا آنفاً ، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو أقرب إلى الحدس والخيال . يجب أن يُبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف أو السلوك الرمزي (Symbolic behaviour) ولكن من قبيل العلم بالشئ لا الأخذ به يحسن بنا أن نأتى على ذكر بعض هذه النظريات ، إن لم يكن لغرض سوى أن ندلل بأن اللغة تنشأ من أسفل وترتقى إلى أعلى ولا تهبط من علٍ إلى أسفل ، منها .

(١) نظرية البو — وو bow waw^(١)

ومفادها أن أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية . وقد أشار العرب إلى هذه النظرية ، وبطريقة غير مباشرة ، عندما تكلموا في «حكاية صوت»^(٢) . وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة ، في كل لغة ، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والحفيف والخرير والخشخشة والطقطقة . وإننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoe وهى اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه . وقل هذا في لفظة «موم» فإنها تعنى في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة ، وظاهر أن التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع إلى أن الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه . ولكن الكلمات التي يمكن أن تفسر على مبدأ نظرية البو — وو قليلة جداً . وفضلاً عن هذا فإن النظرية تعجز عن أن تفسر لنا كيف استغل مبدأ

(١) الكتب والمقالات التي تبحث أصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذكر مقالين جامعين يلخصان للقارئ الذي لايهمه التبسيط في الموضوع أهم ما قدم من نظريات . المقال الأول تجده في: w. B. Pillsbury and C. L. Meader: The Psychology of Language, PP 112—128 (New York and London 1928),

والمقال الثاني Otto Jespersen Language, its nature Development and Origin, pp. 412—442 (Allen and Unwin, London 1922)

(٢) ويشير إليها ابن جني في كتابه الخصائص المذكور آنفاً في فصل يعنونه : (أحساس لألفاظ أشباه المعاني . ص ٥٤٤ . وعنه نقل السيوطي في كتابه المزهرة المذكور آنفاً ص ٤٨ .

« حكاية الصوت » في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظه ابريق ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظه المنضدة ومعناها ؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة أما العلاقة فبسيكولوجية ، أى من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل .

(ب) نظرية الأصوات التعجبية العاطفية Interjections

وتعرف بنظرية Pooh — pooh . ومفادها أن الكلمات الأولى التي نطق بها الإنسان كانت أصواتا تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة أو فرح أو وجع أو استغراب أو تفرز أو تأفف . ومثال هذا اللفظة « تأفف » التي استعملناها نحن . عندما يتأفف الألماني يقول Pfui وعندما تتأفف نحن نقول « أف أو اوف » وعندما تتحسر أو تلهف نقول « وى » ، وهى لفظة ترد في جميع اللغات السامية ، ويتبعها عادة حرف الجر « ل » ، فيقال « وى ل . . . » ، وعلى عمر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة « ويل » ، كما امتزج اسم الموصول « ما » مع حرف الجر « ل » ، فأصبح « مال » ، وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة « ويل » ، وهى wa — la إن ماقلناه عن النظرية الأولى ينطبق على النظرية هذه . لأنه إذا استطاعت نظرية كهذه أن تفسر بضعة ألفاظ فإنها تعجز عن تفسير ألوف من الألفاظ التي لا نرى كيف يمكن أن تكون في أساسها تعجبية عاطفية أو مشتقة من عناصر تعجبية عاطفية . ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفيل والحصان والإنسان بالأصوات التعجبية العاطفية ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(ح) نظرية Ding-dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوى الشهير (١) ومفادها أن جرس الكلمة

يدل على معناها . وهى لا تختلف عن نظرية البو — وو . وقد أشار إليها العرب أيضاً بطريقة غير مباشرة عندما أشاروا إلى أن للحروف معاني (١) فحرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة ، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والحفاء والحزن كما فى غم وغيم وغبن ، وغطيطه . . ولكن كيف نفسر لفظة غنى وغنج وغلّام ؟

عما لا شك فيه أنك إذا نظرت فى كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد تجد أن معانيها متقاربة . ولكن أن نرد معاني ألوف الألفاظ إلى ٣٠ أو ٣٥ فونيم أو وحدات صوتية فإننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد فى غموض المشكلة . إذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التى تمثلها الفونيمات القليلة التى تشكل النظام الصوتى للغة إلى معان لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة فى « لسان العرب » مشتقة من ٢٨ فونيم ؟ هذه النظرية لا تفسر أصل اللغة ، بل تزيدها تعقيداً .

(د) نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية :

وتعرف بنظرية Yo - he - ho وهى المقاطع الطبيعية التى يتفوه بها الإنسان عندما يستعمل أعضاء جسمه فى العمل اليدوى . فكأن هذه الأصوات التى نخرجها عفوية عند القيام بعمل عضلى عنيف تخفف شيئاً من حدة العمل . ومن هذا القبيل أغنية المجذفين على نهر الفولجا . وأنت إذا وقفت إلى جانب عامل يقطع صخراً أو شجرة ، أو إذا راقبت حداداً أو مجذفاً أو رجلاً يرفع حملاً فإنك تسمع أصواتاً ترافق حركاته . وفى الحذاء وفى الرقص الإيقاعى تسمع أصواتاً تتلاءم والحركات الجسمية . ولكن هذه النظرية أيضاً تفسر جزءاً يسيراً من اللغة ، ويبقى السر العميق : كيف نشأت اللغة من هذه الأصوات العفوية التعبيرية التى ترافق حركات الجسم ؟ ما علاقة لفظ الأب والأم

(١) والافضل أن ينظر فى المقطع ، لا فى الحروف ، كما فعل الاب ا . س . مرمرجى فى كتابيه : معجمات عربية — سامية (جوفية ١٩٥٠) والثنائية .

والحنان والجل والجمال وهذه الأصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟
ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(٥) نظرية الإشارات الصوتية :

وللسر رتشار باجت (Paget) (١) نظرية جديدة لم تلاق قبولا .
ومفادها أن الكلمات هي إشارات صوتية (Verbal gestures) . يقول
باجت إن الإنسان القديم كان يتفاهم بالإشارة — الإشارة باليد والإشارة
بتقلص عضلات الوجه — ولكن عندما صار يستخدم يديه لأشياء أخرى
أصبح يشير إلى الأشياء بأصوات . وبما ساعد الإنسان على ترك الإشارة
اليدوية والملاحية والاستعاضة عنها بإشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلا .
ففي النهار يرى الإنسان صاحبه ويستطيع أن يقوم بإشارات يدوية ترى ،
ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام ؟ عندها بدأ الإنسان بالتعبير عن الأشياء
بأصوات ، وهذه الأصوات في الفم تحاكي الأشياء المعبر عنها . وتعرف
نظريته بنظرية ta — ta أي أنك عوضاً عن أن تشير إلى شيء بيدك تشير
إليه بلسانك فتقول ta — ta ويستطيع القارئ أن يرى لنفسه وجه التكلف
في هذه النظرية التي لا تفسر أصل اللغة ، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابة
كتاب ضخيم في الموضوع .

(و) معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة :

عندما حلت رموز اللغات القديمة — السومرية ، البابلية ، المصرية ،
الحثية ، الكريتية — وعندما تعرف علماء اللغة إلى اللغات المتأخرة كلغات
الهنود الحمر والزنوج وأهل أستراليا الأصليين ، نقول عند الكشف عن
هذه اللغات ظنوا وهما أن في دراسة هذه اللغات ما قد يجلو الغموض الذي
يكتنف أصل اللغة . وسبب الوهم ظنهم أن هذه اللغات بدائية وقديمة ،

إذا قد يكون فيها عناصر « طبق الأصل » للغة الإنسان القديمة . ولكن الواقع أن هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة ، بل حديثة بالنسبة إلى عمر اللغة . فقد أثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات أن وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء ، وأنها ليست بدائية في صرفها ونحوها وأساليبها ، بل هي نتيجة تطور وتغير مستمرين . وقد وصلت إلينا هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها ما يدل على بدائية . اللغة قديمة جداً . يظن أن الإنسان بدأ يتكلم منذ مئة ألف سنة ، وهذه اللغات ، وإن اعتبرناها وهما قديمة أو بدائية ، وراها عشرات الألوف من السنين كانت فيها عرضة للتغير والتطور .

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح ، وهوان اللغات التي اعتبروها قديمة أو بدائية بسيطة في تركيبها هي أقرب إلى الأصل على اعتبار أن البساطة من مميزات اللغات القديمة البدائية .

كان أستاذنا ادورد ساپير (Sapir) ، أحد أعلام علم اللغة ، وأحد الثقات في لغات الهنود الحمر ، يقص علينا الكثير من الطرائف عن لغات هنود أميركا . كان يؤكد لنا هذه النقطة : كلما رجعنا إلى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق ، وكلما تقدمنا نحو الأعصر الأخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق . يقول إن في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب : واحد للنساء وآخر للرجال أي أن لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظه بيت في لغة الرجال . وهناك لغات لاتعرف لفظاً واحداً عاماً لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد . فإتنا نقول أكل خبزاً وأكل لحماً وأكل عنباً أما عندهم فلكل نوع من الأكل لفظ خاص به . فإن فعل « أكل » ، في « أكل عنباً » هو غيره في « أكل موزاً » . ولا يقف الأمر عند هذه الغرائب بل نجد أن الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل .

إن بقايا هذا التعقيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية .
خذ التأنيث مثلاً ، فإن الإنسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ
المذكر ففي العربية نقول :

رجل : امرأة

خروف : نعجة

تيس : عنزة

حصان : فرس

أسد : لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصرفي يجد مدخلا إلى اللغة وأصبحنا
نقول :

لطيف : لطيفة

كبير : كبيرة

مؤمن : مؤمنة

وإليك مثلاً آخر على انعدام المنطق في اللغة : تذكير العدد مع المؤنث
وتأنيثه مع المذكر . نقول ثلاث نساء وثلاثة رجال . أين البساطة وأين
المنطق ؟ ولكن ماذا حدث على مر الأيام ؟ نقول اليوم « ثلاث نسوان
وثلاث رجال » .

نعود إلى نظرية معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة
البداية فنقول إن دراسة هذه اللغات أثبتت أولاً أنها ليست قديمة جداً
كما توهمنا ، وليست بدائية كما أحببناها أن تكون ، فلم تسعفنا في الوصول
إلى معرفة الأصل ، بل إتينا لا نزال في الظلام .

(ن) دراسة لغة الأطفال :

وأخيراً ، بفضل تقدم العلوم التربوية والبيسيكولوجية ، اتجه هم بعض

الباحثين في نشأة اللغة إلى دراسة لغة الطفل من مراقبة نمو أعضاء النطق وإخراج الأصوات وكيف تكتسب الأصوات معاني في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لأسباب عديدة منها أن الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة لأن اللغة مكتسبة لا وراثية . فإنه إذا فصل طفل هندي أو عربي أو ياباني عن محيطه في يومه الأول ووضع في محيط آخر كأن نضعه في برلين أو موسكو فإنه ينشأ لغة المانيا أو روسيا . ثم إن أعضاء النطق في الإنسان ليست أصلاً للنطق فإنه كان يوم لم تكن فيه لغة . وهذه الأعضاء التي نسميها أعضاء النطق هي لأغراض جسمية أولاً ثم للنطق ثانياً كاللسان والحنجرة وغيرها . هذه الأعضاء اكتسبت استعداداً أن تلين لعمليات النطق . أما هي في جوهرها فلاغراض جسمية أخرى . وأهم من هذا كله أن لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الأولى التي ينطق بها — لأن ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة — ليست أفعالا ولا أسماء ولا حروفاً ولا جملاً مركبة من مبتدأ وخبر إنما هي أصوات بدائية لأغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتاً يعني « أنا منزعج » هل من يريحنى ؟ وصوتاً آخر يعني : « أنا جائع » . وصوتاً آخر يعني « أنا أتألم من وجع » . نحن نسبغ على هذه الأصوات معاني والطفل بدوره قد يقرنها بمعاني وبمحالات واستجابات ، ولكنه عندما يكبر يعمله المجتمع أن يقول : أنا جوعان ، أنا متألم ، أنا سعيد . الخ . فالمجتمع إذا يعطيه اللغة وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق ، وإذا ابتكر أو خلق كلمات مثل كلمة « نى » في لبنان أو « أن كغ » فإننا لا نقبلها منه ونقول له قل « أكل » أو قل « أنا مبسوط » ، إذا دراسة لغة الطفل لا تأتي كثيراً من النور على السُّرَّال الذي عنونا به الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وأنت ترى الآن لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل يتركها لعلوم أخرى كالبيسيكولوجيا والاثروبولوجيا والميتولوجيا ، لأن اللغة لم تبدأ بالمنطق والفكر إذ لم يكن هناك منطق أو فكر . علينا ،

أن نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الأسطورة وتطورها إذ أن الأسطورة واللغة في مبدئها من نسيج واحد ودوافعهما الحياتية من معدن واحد^(١).

إذا كنا لا نعرف على وجه التدقيق كيف نشأت اللغة فإننا نعرف الكثير عن تطورهما ، عن حياتها وموتها ، عن تجزئها إلى لهجات وتجزؤ اللهجات إلى لهجات . ولكن قبل أن نأتي على ذكر هذا أحب أن أقف عند قضية اللغة والعرق والعقلية ثم أتطرق لبحث علم حديث العهد له الفضل الأكبر في تغيير وجهة نظر الناس إلى اللغة ، أعني علم اللغة Linguistics ، وبما يسر له كثيراً أن جمهورية مصر ، من بين الأقطار العربية ، أول من أدرك أهمية هذا الدرس فأوفدت الطلاب إلى بلاد الغرب ، وعندكم الآن نخبة فاضلة تعنى بهذا الدرس الجليل .

(١) من له رغبة في هذه النظرية الأخيرة عليه أن يراجع دراسة لعالم ألماني :

Ernest Cassirer : Sprache und Mythos (No, IV Studien der Bibliothek Warburg.)

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية — اللغة والعرق والعقلية — بالعلماء اللغة في القرن التاسع عشر ، إذ حاولوا ، تحت تأثير علم الأنثروبولوجيا ، أن يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة أو تلك . وحاولوا أن يجدوا في اللغة انعكاسا لليزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرة إلى الحياة . والدراسات التي عُنِيت بظوائع الشعوب وميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد . وجميعنا يذكر أرنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص .^(١) وإني أذكر قراءة مقال لعالم ألماني يبحث ألفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة ، ومن جملتها لفظة Interessant رغم أن هذه اللفظة الغريبة لا يمكن أن تنقل إلى لغة سامية ، وإذا نقلت فإنها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغريبة . ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة Interessant إلى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغريبة . إذاً لا يمكن الشعب السامي أن يكون قد أسهم في خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن أساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية ، الشغف الروحي ، والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون .

وكان من حرصهم على هذه الدراسات أنهم حاولوا تصنيفها إلى عائلات والنظر في خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة إلى ثلاث عائلات كبرى :

(١) الفاصلة Isolating

(١) راجع رد تيودور تولدك عليه في مقاله الراحل . « اللغات السامية » الذي ترجم خفيساً لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان Scmetic language الطبعة الثالثة عشرة .

(ب) اللاصقة Agglutivative

(ج) المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (أو الجذر) إن وقع في التركيب . أما العلاقة الصرفية والنحوية بين كلمة وأخرى في الجملة فتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها أو حالاتها الإعرابية . واللغة الصينية هي من هذا النوع . فإن الضمير «أنا» لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية ، تبعاً للحالات الإعرابية والصرفية بل يظل على شكله الأول إنما يتغير مركزه في الجملة . وهذا التغير في مركز الكلمة يدل على الحالة الإعرابية أو على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة . وإيضاحاً للسألة نقول إن في لغتنا العربية يتغير الضمير «أنا» إلى «ت» ، في مثل «أكلت» ، ويتغير إلى «ن» ، في مثل «أحبني» ، ويتغير إلى «ي» ، في مثل «كتاني» ، وإذا أكدناه قلنا «إيَّاي» ، أما في الصينية فيقال : «كتاب أنا» ، «كتب أنا» ، «أحب أنا» ، وفي حالة التأكيد «أنا أنا» .

واللغة الإنكليزية تحتفظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث . فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة . ومثال على ميزتها الأولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية : I know, what, you mean, I فإنك تستطيع أن تركب منها عبارات عديدة ولكل عبارة معنى يختلف عن معنى الأولى . ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها . إنما يتغير موقعها في الجملة :

What You mean I know

I know what you mean

You know what I mean

What I mean you know . . . الخ

أما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر إنما نستطيع أن «نلصق» به ، في أوله أو في آخره ، عناصر أخرى لخلق معان مختلفة . والتركيبية هي من هذا النوع ، وكذلك الإنكليزية فإننا نقول :

reason, reasonable, reasonably, unreasonable, unreasonableness

وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الأصلي : reason .

أما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيها الجذر أو تتغير حركته ، وقد يمتزج بعناصر أخرى ، أو عناصر أخرى تمتزج به في أوله ووسطه وآخره ، وفي جميع هذه التغيرات يختلف المعنى . وأحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كَتَبَ كُتِبَ كَاتِبٌ مكتوب استكتب . الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة أرقى اللغات — ربما لأن اللغات الأوروبية متصرفة ! — وحسبوا أن أدنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين . وقد قرنوا الأولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضارى البدائى القائم على وحدة العائلة ، وقرنوا اللغة الثانية ، الفاصلة ، بطور البداوة ، وقرنوا الأخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

بما لا شك فيه أن كثيراً من مفردات اللغة تعكس إلى حد بعيد محيط الإنسان الطبيعى ، وإلى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية فالعربية مثلاً قد احتفظت بطابعها الصحراوى ، وأثر الصحراء والعيش الصحراوى القبلى الرحلى يبدو جلياً فى كثير من مفرداتها فى لغتنا اليوم . ولكن يجب ألا نسترسل فى الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوى . فإن علماء اللغة اليوم لا يجدون أن التركيب اللغوى يعكس مزايا خاصة أو أنه يدل على طبائع معينة أو أخلاق ومثل عليا أو دنيا . خذ مثلاً التركيب اللغوى الذى يدل على الملكية (وهو فى علم النحو الإضافة) فنحن العرب نعبر عن ملكية خالد للكتاب بقولنا : « كتابُ خالد » وعندما يسمع العربى هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكى عنه وخالد . والإنكليزى

يعبر عنها بقوله : Khalid's book أو The book of Khalid

ويعبر عنها الألمانى بقوله : Der Buch des Khalids

ويعبر عنها الفرنسى بقوله : Le livre de Khalid

وأنت ترى أن الغاية قد تمت فى جميع هذه اللغات ، وهى إظهار علاقة

الكتاب بخالد ، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ إليه العربي أو الإنكليزي أو الألماني أو الإفريقي للتعبير عن الفكرة . ولا مبرر للقول بأن التركيب العربي أحسن من التركيب الألماني أو أن التركيب الألماني يعكس عبقرية لا نجد لها في التركيب الإنكليزي . جميعهم أرادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة . إذاً اللغة نتيجة لا سبب ، وأن نعزو إلى التركيب خصائص عقلية وروحية وأخلاقية فأمر مبالغ فيه جداً . وعلماء اللغة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون أن يروا في اللغة وتركيبها انعكاساً للعقلية والأخلاق . فإن في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير بيسر وكفاءة تفوق أحياناً اللغة الألمانية .

والخلاصة يجب أن نفرق بين لغة وعرق وحضارة . فهنا هم زنوج أميركا يتكلمون الإنكليزية ولا يعرفون لغة غيرها . والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا في الحياة الأميركية لا يعرفون لغة غير الإنكليزية . ولو كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم إلا عرقاً خاصاً أو عقلية خاصة أو حضارة خاصة لما وجدنا أن اللغة الواحدة قد تكون مشاعاً لأعراق عديدة وأداة لحضارات مختلفة .

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الأخرى ، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بأن هذه اللغة وتلك أحسن اللغات وأفصح اللغات وأغنى اللغات وأشرف اللغات هو من باب المباهاة . اللغة شيء والحضارة شيء آخر ، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب ألا نخلط بينها .

علم اللغة

(Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا . هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة . ولا يعنى علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على أنها ظاهرة إنسانية اجتماعية بسلوكولوجية ، أو هو جزء من درس المواصلات . وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا للغوى والفلسفى لأنه علم له أوثق العلائق بالفكر : الفلسفة والدين والأدب والعلم والفن . وبعبارة أخرى اللغة أساس جميع العلوم الإنسانية ، وهى طريق الإنسان لفهم الكون والحياة .

وقد يسأل أحدهنا : هل تخضع اللغة للعلم ، للعلم التجريبي التطبيقى كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للكم وللكيف ؟ والجواب عن هذا هو ان علماء اللغة فى الربع القرن الأخير حاولوا مخلصين إخضاع اللغة للعلم وقوانينه كما حاول ، ويحاول ، علماء الاجتماع إخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم . وذلك لأن اللغة ظاهرة بيولوجية اجتماعية بسلوكولوجية ، والأسلوب العلمى يطبق فى هذه العلوم جميعها فما الذى يمنع من تطبيق الأسلوب العلمى على اللغة على أساس أنها شىء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للمختبر ؟

قد يعترض أحدهنا : أن اللغة ظاهرة اجتماعية لاتلین لأحكام العلم الصارمة لأنها فى جريان أو اندفاع مستمر (Continuous flux) وفى تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبى التقييد . إنما نحن نقيّد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها ، وفى هذا الاعتراض شىء من الصحة ، ولذا يقول علماء اللغة اليوم إن وظيفة عالم اللغة هى فى المرتبة الأولى الوصف (description) . فإنهم ينظرون إلى اللغة على أنها لغة الساعة التى يصفونها بها ، أو على أنها لغة القرن الرابع أو الخامس أو التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة فى نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذا الأسلوب العلمي الذي أكثرنا الكلام عنه ؟ إن هذا الأسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعية (Objectivity) أى تجرداً عن الذاتية ، تجرداً عن كل غرض وهوى وسابق معرفة ، والبدء بالملاحظة والمراقبة وتدريب هذه الملاحظات . وبعد أن يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات (data) يضع نظرية مؤقتة يظن أنها تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لا حظها ودونها . ثم إنه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى إذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر . وهنا يثابر في التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً ما يرى أن عليه أن يعيد النظر في صحة هذه النظرية . ولكن إذا تبين له أنها تستطيع أن تعلل جميع هذه الظواهر فإنه يعلنها قانوناً أو قاعدة علمية . وقد طبق هذا الأسلوب في العلوم الطبيعية أولاً وكان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالإنسان صعداً في الحضارة الآلية ، وفي سعيه الحثيث للوصول إلى حياة أفضل مادياً وروحياً . هذا الأسلوب العلمي يطبق الآن في درس اللغة . وقد مرّ علم اللغة في أطوار عديدة . وليس لنا أن نؤرخ له إنما ننتقل بكم إلى القرن العشرين . الذي يحق لنا أن نسميه في تاريخ علم اللغة بالقرن الوصفي descriptive لأنه لا يعنى بالناحية التطورية التاريخية ولا يعنى بالناحية البسيكولوجية الفلسفية كما كانت عليه الحال في القرنين السابقين بل تتركز الجهود في وصف اللغة وصفاً علمياً دقيقاً سواء أكان ذلك من جهة الصوت Phonology أو من جهة الشكل Morphology أو من جهة التركيب Syntax وتمثل مدرسة لندن ، قسم الفونتيك وعلم اللغة ، هذا الاتجاه أحسن تمثيل . فإنك إذا كنت طالباً في هذه المدرسة وشاقتك أن تعرف السبب لماذا ، وكيف ، ولأية غاية حدث هذا في تاريخ اللغة ، ومتى حدث ، لأجابه الأستاذ بقوله نحن هنا لسنا في دائرة التاريخ ! لا يهمننا « لماذا ؟ » ، ولا نعنى بالأسباب والعلل لأننا لا نعرف الأسباب والعلل . لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الأمر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول . ولو أنهم فعلوا هذا

لقبلنا المنطق ذاته . يهمننا تقرير الواقع . اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة ، لغة الساعة التي أنت فيها ، وعملنا هو أن نصف هذه اللغة على مراتب (١) : مرتبة الصوت ، ومرتبة التركيب ، ومرتبة المعنى ، وغيرها من المراتب . وعندما يتم وصف اللغة ، ومتى تجمعت لدينا جميع المعلومات الأساسية عندها يحق لنا أن نعمم ، أو أن نشير إلى الاتجاه ، أو أن ننظر إلى التاريخ ، أو أن نتلفت إلى المستقبل . نحن لا ندرس اللغة درساً حدسياً بل واقعياً .

ما هو علم اللغة وما هي مادته ؟ إن علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلاً معيناً محدداً كما هي الحال في بقية العلوم . وقد مر هذا العلم في طورين : ففي الطور الأول كانت مواد هذا العلم تنحصر في :

(١) علم اللغة العام General linguistics .

(ب) علم المقابلات اللغوية Comparative philology .

(ح) درس التطور الصرفي والنحوي Historic grammar .

أما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم إلى جانب ما ذكرنا حقولاً أخرى :

(١) الحقل الفيزيائي — البيولوجي .

(ب) الحقل البسيكولوجي — الفلسفي .

(ح) الحقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحثة لا من جهة فلسفية .

أما علم اللغة العام general linguistics فيعني باللغة إطلاقاً ، أي أنه لا يحدده في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة إنسانية اجتماعية ، فيدرس نواحيها العامة من صوت وتركيب وأسلوب ، ثم ينظر في تطورها

(١) « مرتبة » ترجمة اللفظ العربية level . فإنك إذا نظرت في الأصوات التي تتركب منها اللفظة فإن دراستك لها تكون على مرتبة الصوت ، On phonological level وإذا نظرت في مقاطعها فإنك تعني بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure وإذا نظرت في الصرف فإنك تدرس اللغة على مرتبة الشكل والبناء Morphological Level . . الخ

ونموها وانحلالها إلى لهجات ، وينظر في أثرها في المجتمع . أما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعنى بمقابلة لغة بأخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما . ويدرس التطور الصرفي والنحوي كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة أخرى . ويحاول أن يجد في هذه المقابلات ما يلقى النور على الأسباب والعلل . وأما درس التطور الصرفي والنحوي historical grammar فيعنى بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية . وقد ينظر أحياناً في الصرف الحى living grammar أى صرف اللهجات ونحوها على ما يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية . أما علم اللغة في الفترة الأخيرة فقد تناول ، كما أشرنا ، حقولاً ثلاثة نحب أن نقف عند كل منها قليلاً لنعرض على القارئ العربى أسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة .

الفل الفيزيائى — البيولوجى :

وهذه الدراسة تعنى بالأصوات اللغوية من ناحيتها الجسمية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physics) فإن الصوت مجرى هوائى يبدأ فى الرئتين ، إلى الحنجرة ، إلى الفم ، إلى مخرج الفم . ولكن هذا المجرى الهوائى فى مسيره من الرئة إلى الشفة يتكيف ويتحول ويتغير تبعاً لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها فى سيره كل من الأوتار الصوتية ، ومؤخر الحنك ، فاللسان فالأسنان ، فالشفتان . وتستطيع أن تدرك هذا لنفسك إذا قارنت بين التنفس العادى والنطق بأصوات لغوية . فإنك إذا دفعت بالهواء من رئتك فاتحاً فك ومانعا الأوتار الصوتية ، ومؤخر الحنك واللسان والشفتين من أن تعترض المجرى الهوائى فلا يحدث فى هذه الحالة صوت لغوى ، بل يحدث مانسميه تنفساً عادياً . ولكن هذا المجرى الهوائى ذاته إذا اعترضه معترض تغير وتحور . وعندما نقول أن فى اللغة الفلانية ٢٨ أو ٢٩ صوتاً لغوياً فإننا نعنى علباً أن المجرى الهوائى من الرئة إلى الشفتين يتحول ويتغير إلى ٢٨ أو ٢٩ صوتاً مختلفاً .

ويلاحظ القارىء أن الحقل الفيزيائى — البيولوجى يتناول الأصوات اللغوية من ناحيتين : فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف أعضاء النطق ، الحنجرة والأوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة والأنف واللسان والشفيتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق . وفيزيائية وتعنى بطبيعته الصوت (Acoustics) ودرس الأصوات اللغوية من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك (Phonetics) وهو من الدروس التى تفرض فرضاً على كل من أراد التخصص فى علم اللغة ، لأنه درس أساسى . وكما أن الطبيب لا يمكنه أن يصبح طبيباً إذا لم يكن قد اتقن أولاً درس الفيزيولوجيا ، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تحليل كثير من الظواهر اللغوية كالإعلال والأدغام والإشمام والإمالة والتفخيم والاختلاس والتلين وانحلال النظام الصوتى ونشوء اللهجات إذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الأصوات وبالنواميس التى تتحكم فيها .

وليس لطالب علم اللغة أن يكون فيزيولوجياً يتخصص فى دراسة الجسم كله ، وليس له أن يكون عالماً فيزيائياً . إنما طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته . وقد أنشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها أساتذتها ومختبراتها ومكاتبها . وإذا قيس لك أن تزور إحدى هذه الجامعات وجدت أن مختبر الفونتيك بالآلة المصورة والمسجلة وأشعة اكس لا يقل تعقيداً وأهمية عن مختبر الفيزياء . إن دراسة الصوت من ناحيته الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر فى علم اللغة مقدمة له (Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هى أصوات تقرر بمعان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الآن (Meta-linguistics) أى ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة ، أى علاقة اللغة بالفكر والأدب والفلسفة .

الحفل البسيكولوجي — الفلسفي

وقد ألمعنا إلى أهمية هذا الدرس ، درس بسيكولوجية اللغة ، عندما بحثنا « ما هي اللغة ؟ » وقد مثلنا للقارئ بحادثة الولد الذي طلب إلى أبيه اقتطاف تفاحة له ، وماذا دار بينهما من كلام . وقلنا إن عملية التكلم ، على بساطتها الظاهرة ، عملية معقدة جدا تتناول الصور الذهنية التي يسببها تأثرنا بالعالم الخارجي ، والكيفية التي بها تتغير هذه الصور الذهنية إلى صور صوتية تعبيرية . (Verbal symbolism) وقد سألنا أسئلة عدة عما يجري في الدماغ وكيف يجري ، وكيف تحضر المتكلم المفردات ، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقرررة في الذهن ، وما العلاقة بين اللغة والفكر .

وهناك مشاكل بسيكولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة . ما هي أقسام الكلمة ؟ أتعلم أن علماء اللغة ليسو على رأى واحد بل تختلف أجوبتهم عن هذا السؤال كثيراً (من ٢ إلى ٣ إلى ٧ إلى ١٧) . ثم ما هو تحديد الفعل ؟ ما هو الاسم ؟ ما هو الحرف ؟ وهل التعاريف القديمة صحيحة دقيقة ؟ وما هي وحدة الكلام ، الكلمة أم الجملة ؟ وما هي الجملة ؟ هل صحيح أن الجملة هي المؤلفة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل ؟ وما قولك بجواب مفيد مثل « نعم » جوابا لمن يسألك : هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه ؟ وقد لا نقول « نعم » بل نكتفي بإشارة بالرأس أو التغيير في الملامح أو بنوع من النحنة « التي تفيد ما تفيده لفظة نعم . فهل هذه من اللغة ؟ هل « نعم » جملة مفيدة ؟ البسيكولوجي يقول نعم هي رد الفعل لمؤثر خارجي . وهناك قضية المعنى (meaning) وكيف يتكون في الذهن وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفونيمات . ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق ، هل تصلح اللغة أن تكون أداة لهما أم أنها تعوق التفكير الفلسفي لأنها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة ؟ وأخيراً ، وهذا أعقد المسائل اللغوية ، هل هناك فكر مجرد أى هل هناك فكر أو تفكير بدون كلمات ؟ جرب أن تفكر واسأل نفسك : هل أستطيع أن أفكر وأن أدرك الأمور دون كلمات ؟

إن هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض . وإذا أنت راجعت فهرس المكتبة اللغوية (أى الكتب التى تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبيسيكولوجيا والتربية التى تبحث هذه القضايا . ولكننا نحن لا نغيرها شيئاً من اهتمامنا . وعلماء اللغة يحاولون أن يجدوا لهذه الأسئلة أجوبة مقنعة . وتراهم فى شبه تنافس على مع البيسيكولوجيين الذين يقولون أن اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية فلسفية، إذاً عليها يقع فى علم البيسيكولوجيا . يقول علماء البيسيكولوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم فى القرون الثلاثة الأخيرة أن تحلوا مشاكل اللغة ولم تفلحوا فتركوها لنا الآن^(١).

الحقل اللغوى الصرف

ومن الناس من ينصرف إلى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر إلى الملاحظات الاجتماعية والفلسفية والبيسيكولوجية . فيحصر همه فى وصف أصوات اللغة وأحكام التركيب ووضع المعجم (نعنى مفردات اللغة) . حسب أسلوب على دقيق .

يفرق دارس اللغة بين « لغة قديمة » ، « ولغة حية » . فالقديمة هى التى وصلتنا من نقطة معينة فى الزمن حسب نماذج مدونة . واعتمادنا فى هذه الدراسة التقليد (Tradition) وأحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تدرس فى الجامعات ، أو السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة فى الألف الأول قبل المسيح . والعيب فى هذه الدراسات ، فى نظر عالم اللغة ، هو أنها لا تعتمد النطق بل الكتابة والكتابة غير النطق . الكتابة رمز للنطق . أما النطق الصحيح والتركيب الصحيح هو الشائع على ألسنة الناس لا المدون فى الكتب . ولكن هذا لا يعنى إهمال درس اللغات القديمة أو الانتقاص من

(١) من هذا القيل كتاب الاستاذ كاتور . J. B. Kantor . An Objective Psychology of Grammar, Bloomington 1936.

قيمتها ، كلا إنما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت إلينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة . اللغة الحية هي لغة الناس .

وإذا فرق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فإنه لا يُفرّق في أسلوب الدراسة . وهذا الأسلوب ، الذي تمثله مدرسة لندن أحسن تمثيل ، يعتمد أولاً تسجيل اللغة واللهجة المنوى درسها . فيؤتى بأناس يعتقد عالم اللغة أنهم خير ممثلين لتلك اللغة فيقرأون أو يقصون أو يتحدثون عن أمر ما على رسالهم وبطريقة طبيعية . وفائدة التسجيل هو أن الباحث يستطيع أن يردد على مسمعه لغة المسجلين مراراً وتكراراً وفي أوقات تحلو له . ثم يبدأ بدرس المدوّن حسب ما اصطالحوا عليه بالمراتب (levels) فهناك المراتبة الصوتية (Phonological level) أى ضبط دقيق لنظام الأصوات اللغوية واختلاف النطق بالأحرف المصوّتة ، وتسجيل أثر حرف في آخر ، وما إلى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس شكل الكلمات وصوغها وتصريفها ويعرف بالمرتبة الصرفية level Morphological أى علم الصرف حسب مصطلحنا ثم يتناول التركيب ، والتركيب جوهر اللغة كما قلنا سابقاً . ونعرف هذه المراتبة بالمرتبة التركيبية Syntactical level . ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة lexical level وهناك مرتبة أخيرة Semantic level أى المراتبة المعنوية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتجدر بنا الإشارة إلى هذا العلم عند العرب فإنهم كالفنود والإغريق برزوا في هذا الحقل وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية ولكن ، وهذا بما يؤسف له ، لم يعتبر لغويو العرب اللهجات ، ولم ينظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطورة بل اقتصرتهم جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان وحرصوا على ضبط أحكامها وقواعدها لكي لا يجد التغيير إليها سبيلاً . ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل الجمود ، بل اللغة سيل جار (Continuous flux) .

أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوى

لعلم اللغة الحديث كما وصفناه لك باقتضاب كلى فى الفصل السابق ، أثر عميق فى تغيير نظرنا إلى اللغة ووظيفتها وأثرها فى الفرد . ويحسن بنا ، إيضاحاً للأمر وإيجازاً فى البحث ، أن نذكر على شكل نقاط أهم النتائج التى أسفر عنها هذا العلم ، والتى كان لها نصيب فى تغيير نظرنا التقليديّة القديمة :

(ا) ليس هناك لغة أفضل من لغة .

(ب) للغة مجرى .

(ح) لا اعتبار للكتابة وقواعدها فى علم اللغة إنما الاعتبار للفظ .

(د) اللغة أكثر من فونيمات .

(هـ) ليس للغة كيان بدون الإنسان .

(ا) ليس هناك لغة أفضل من لغة :

لقد أثبت علم اللغة الحديث أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنسانى . وهى ظاهرة إنسانية لا علاقة لها بالآلة ، ولم تهبط من عل ، بل نشأت من أسفل ، وتطورت بتطور الإنسان ذاته ، ونمت بنمو حضارته . وليس هناك من مبرر للفاضلة بين لغة وأخرى ، كأن يقول أحدنا أن فى الألمانية عبقرية لا تجددها فى الافرنسية ، وفى الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجددها فى التركية . لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع . وليست القضية قضية لغة أفضل من لغة بل قضية حضارة وحياة أغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة فى أصوات اللغة كأن يقول أحدنا إن فى الإيطالية أصواتاً أعذب موسيقى من أصوات العربية . فالذى نعهده نحن البيض عذوبة

فى الصوت قد يعده الهندى الأحمر قبحاً وخشونة ، وما نحسبه بياناً وفصاحة قد يرى فيه الزنجى غموضاً وتعقيداً .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما أكثر عدداً من مفردات لغة أخرى . إذ قد يكون عندنا ، نحن البيض ، للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر بها عنها ، بينما نجد أن الصفر أو الحمر أو السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج إلى لفظة خاصة ، بل قد يعبرون عنها بطريقة أخرى مخالفة ولكن فعالة . وقضية المفردات لا تدخل فى صميم اللغة . فنحن نباهى مثلاً أن للشئ الواحد عندنا أسماء عديدة ، وللـفعل الواحد أفعالاً عديدة ، ولكن غيرنا يرى فى ذلك إسرافاً . والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات أخرى . وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى أرقى . وهنا نكرر القول أن القضية ليست قضية مفردات بل قضية شعب راق أو شعب متأخر ، وعند ما يرتقى الشعب وتحرر أفراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة أن تسير الحضارة بلسانها الخاص . قد يجد المجتمع نفسه مضطراً للتوليد والترجمة والاقتباس ، ولكن هذا لا يضر اللغة بل يزيد لها غنى .

(ب) لغة مجرى :

لكل لغة مجرى تجرى فيه حتماً . وهذا المجرى يتشعب إلى مجارٍ أخرى مختلفة . وكما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغاير . من عامة الناس يصدق أن الأرمنية والإيرانية والروسية والألمانية والإيرلندية واليونانية واللاتيفية والإنكليزية على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين فى المفردات والصرف والنحو والأصوات وأساليب التعبير ، نقول من من الناس يصدق أن هذه اللغات تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد ؟ وقل مثل هذا فى اللغات السامية ، فإن العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحديثة تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إن هذه المجارى تشعب بدورها إلى مجاز جديدة . فمن اللاتينية تحدرت لغات حية هي الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وهذه بدورها ستفرع إلى لهجات متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الآخر بتماسكه ونموه .

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها إلى أسفل فلامس التربة وترسل في الأرض جذوراً تصبح أشجاراً آفية فيما بعد . وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة .

وإذا قلنا إن اللغة تموت ، فإنما نقصد بالموت التغير الكلى الذى يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذرى فى الحياة وفى الظروف المحيطة بالحياة إلى حد نستطيع فيه القول إن لغة اليوم هى مغايرة للغة أمس .

(>) **دراسة الكتاب وفروعها فى اللغة ، إنما الاعتبار للنظ :**

ليست الكتابة من جوهر اللغة . اللغة أقدم من الكتابة ، والكتابة عرض . اللغة مجموعة أصوات لغوية ، والكتابة رموز لهذه الأصوات شأنها فى ذلك شأن رموز قصعة موسيقية .

الرموز الموسيقية ليست الموسيقى . وقد تكون رموز الكتابة حروفاً لاتينية أو عربية أو هندسية شكلها أجمل من شكل الحروف الحاضرة ، وقد نرمز إلى الفونيم ن بشكله اللاتينى N أو بصورته الكتابية فى اللغة الصينية لا فرق فى ذلك كله على شرط أن يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصطلح عليها .

ونمثل لك على صحة هذا — من أن الكتابة عرض والنظ جوهر — بمثال من لغتنا العربية . فمن المقرر المعروف أن كتابتنا العربية غير المشكلة أشبه بهيكل حظى للكلمة لا حياة له إلى أن يسبغ القارئ عليه حياة بإضافة الحركات وإخراج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، إلى حد ما ، على

جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الحالية من الحروف المصوتة . خذ مثلاً جملة « من علمني حرفاً صرت له عبداً ، فإنها مجموعة حروف صامتة لا يمكن أحد الناس أن يقرأها ما لم يكن يعرف سابقاً أنها كيت وكيت في اللفظ . ويدرك القارئ هذا الأمر بوضوح إذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فإنها تكون هكذا : MN, 'Imni HRf srt, lho 'bd .

وظاهر أن كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، إنما يستطيع العرب قراءتها لأنهم يعرفونها سابقاً . إذا الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين ألفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسناً ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني ، وقد يكون اصطلاحاً غير موفق كما هو في الكتابة السورية ، أو كما هو في الحرف العربي الخالي من الحركات .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن اللغة لا تعرف الجمود ، فهي أبداً في تغير مستمر بينما الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك ترى فرقاً عظيماً بين الكتابة واللفظ ، ذلك لأن اللفظ يتغير ولكن محافظة الإنسان على شكل الكتابة تجعلها تتسكع في المؤخرة . فالإنكليزي يكتب laugh ويلفظ Laf ويكتب Thru ويلفظ Thru . وكذلك الأفرنسي فإنه يكتب Ils mangent ويلفظ il manj . وعند ماتهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة . ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، عند ما يدرك كل إنسان ، وليس علماء اللغة فقط ، أن الكتابة عرض واللفظ جوهر . وهذه القضية ، بالنسبة إلينا نحن العرب ، أمر يجب أن ندركه على وجهه الصحيح لأن حرفنا من أعقد مشا كل اللغة .

يأخذ علماء اللغة المعاصرون على الصرفيين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقياساً للغة فجاءت أكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وإفهام . ولقد فات الصرفيون القدماء أن المكتوب محنط ثابت وأن اللغة جسم حي نام متطور . وكل قانون مبني على المحنط الثابت يؤدي بنا إلى نتيجة محتمة : فرق شاسع بين

المكتوب والمقروء . الصر في يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ، وهو في عمله هذا كرجل يضع سياجا من قصب في وجه دبابه من فولاذ .

(د) اللغة أكثر من فونيمات :

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيمات ، وليست اللغة رموزاً كتابية . هذه من اللغة ، وجزء هام من اللغة ، فضلا عن هذه ، حياة . فإتأ عند ما تتكلم لا تتفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون إحساس أو شعور كآلة ميكانيكية تردد أصواتا لا حياة لها . كلا ! بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الإنساني الذي يضاف على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال .

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدة هو ذاته ؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها أنت لنفسك ثم اصغ إلى ناظمها يقرأها فإنك تجد فرقا عظيما بين قراءتك إياها وبين قراءة الشاعر . الفرق في العنصر الإنساني . فإتأ عند ما تتكلم ترفق كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الإحساس والعاطفة والصوت المنخفض أحيانا والقوى أحيانا أخرى ، والنغم ، والنبرة ، والإشارة الخفية باليد ، والانفعالات التي تظهر في ملامح الوجه ، جميع هذه تكسب اللغة شيئا من السحر ، وأحيانا تتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية . ثم إتنا نخطب الطفل بلغة وبنغم يختلفان عن لغتنا وبنمنا عند كلامنا مع الرئيس أو الصديق أو الحبيب أو الخادمة . هي الإضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة أنها من اللغة . وإذا كنت في شك من ذلك — من أنها جزء من اللغة لا ينفصل عنها — نمثل لك بمثلين من الحياة : المسرح وقراءة الأولاد في قاعة الدرس .

أذكر أني شهدت رواية تمثّل على مسرح من مسارح لندن ، وقد أعجب بها الجمهور إلى حد أن الرواية تمثّل منذ سنتين . وأذكر أني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة ثمن النسخة ثلثين . ولا أظن أني استمتعت

بقراءتها ولا أخذت بما فيها من أحاديث ونكات ، من جنون وفلسفة ، من كذب وصدق ، من رياء وإخلاص . ولكن شعرت شعوراً مختلف تمام الاختلاف عند ما شهدت الرواية على المسرح . استمتعت كثيراً وضحكت كثيراً وفكرت كثيراً وتأثرت كثيراً . ولماذا ؟ ذلك لأنى عند ما قرأتها لم ألمس العنصر الإنسانى ، أما على المسرح فأشخاص الرواية أحياء يتكلمون وفى كلامهم حياة ، وأحياناً كثيرة لم يتكلموا ، ولكن الجمهور كان يقرأ ، يقرأ بوضوح ، ما يجول فى عقولهم وقلوبهم من أفكار وعاطفة . كانت عيونهم وملامح وجوههم وحركات أجسادهم تتكلم . ليست اللغة فوئيات فقط ، اللغة حياة وهى العنصر الإنسانى .

هل دخلت غرفة درس وأصغيت إلى الأولاد يقرءون ؟ هنالك معلمون ومعلمات أدركوا أن القراءة الفعالة هى التى يكون فيها العنصر الإنسانى ظاهراً قوياً مؤثراً ، فيطلب المعلم أو المعلمة إلى التلاميذ أن يرفعوا الصوت هنا وأن يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن ، هنا استعصاف وهناك طلب ، وفى جميع هذه الحالات يجب أن يظهر المعنى بواسطة إضافة العنصر الإنسانى الذى لا تراه فى السطر أمامك .

وما يؤسف له أن مدارسنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من التريديد الميكانيكى وعلى نغم واحد مزعج من أول الصفحة إلى آخرها .

(٥) لبس للغة كيان بهرون الإنسان :

وهذه حقيقة لا تحتاج إلى إقامة دليل ، فإنها أقرب إلى البديهيات منها إلى الأمور التى تتطلب البرهان ؛ فالبابلية ، مثلاً ، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الأدنى وكانت كتابتها محترمة متبعة فى أقاليم عدة ، وخلفت آثاراً كتابية تتسع لوضع معجم كبير ، ولكن اللغة البابلية ماتت

لأن الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا أو اندمجوا في حضارات أخرى .
ذلك لأنه لا كيان للغة بدون الإنسان .

ويترقب على هذا القول نتائج بعيدة الأثر ، وأبعدها أثرا إعادة النظر
في فلسفة النحو المبينة على فكرة العامل — العامل اللفظي والعامل المعنوي —
فقالوا مثلا إن سبب الأعراب العامل ، فالرفع والنصب والخفض لا يكون
إلا بعامل ، وسبب المنع من الصرف علة من العلل ، وسكون لام الفعل
في مثل « أكلت وأكن » لاتصاله بضمير صحيح . بكلام آخر عزوا هذه
الظاهرة اللغوية أو تلك لأثر كلمة في كلمة . فإن « إن » تنصب المبتدأ وترفع
الخبر « كان » ترفع المبتدأ وتنصب الخبر فكان للكلمة سحرا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الصرفيين والنحويين لم يقبلوا بهذا
المنطق فإن ابن جني في « خصائصه » يقول مامعناه أن الرفع والنصب والجزم
مرده إلى المتكلم نفسه لا لشيء غيره . أي أن الإنسان هو العامل الأول
والأخير في عملية النطق . وقد ألف مفكر عربي ، ابن مضاء القرطبي كتابا
في هذا الموضوع سماه « الرد على النحاة » حاول فيه أن يدحض المنطق الذي
كان يتمسك به النحاة فإنه يقول إن العامل هو الإنسان ذاته . ليتصور
القارئ ماذا يترتب على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة . فعوضا
عن أن نقول للتلاميذ في إعراب « العلم نافع » العلم مبتدأ مرفوع بالابتداء
(عامل معنوي) نقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر . وفي جملة « إن
الطقس جميل » الطقس منصوبة لأن العرب هكذا قالوا وكفى .

وإني أذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الأستاذ
فرث Firth من جامعة لندن عند ما كنت أحضر مجلس تعليمه (Seminar).
فإنني كنت أطلب جوابا على « لماذا؟ » ، « ما السبب » فكان يجيبني الأستاذ
« السبب بسيط جدا : الإنسان ! وأي تعليل آخر هو حدس وتخمين
أو تقوّل في أمور لا نعرف لها سببا » .

اللغة من الحياة الإنسانية وبدون الإنسان لا كيان للغة فإن عاش عاشت
وإن مات ماتت .

لغة ولهجة

يجدر بنا قبل أن نبحث نشوء اللهجة أن نعرف هاتين اللفظتين . فإن أول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح في المصطلحات . ما الفارق بين لغة ولهجة ؟ وقد يعجب القارئ لهذا السؤال فإن الفرق عنده واضح ظاهر . ولكن على ضوء علم اللغة ليس الفارق بينهما بالآمر الواضح الظاهر ، إذ لا يفرق علم اللغة مبدئياً بين لهجة dialect ولهة literary language كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها ، بنظامها الصوتي وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير .

قد يعترض أحد الناس على هذا الزعم بقوله إن الفرق بين لهجة ولهة هو في الأدب . اللغة هي التي لها أدب . أى أن الأدب مقياس للتفرقة . وهذا الزعم مردود ، فإن لهجات الزوج والهنود الحمر ولهجات الأقوام المتقدمة لها أدبها : شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانيتها . وقد يختلف هذا الأدب في غناه الروحي والعقلي والجمالى عن آداب الشعوب التي خطت خطوات واسعة في عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم ، ولكن ذلك راجع لآثر الحضارة في الاجتماع . هذه الأقوام التي تتكلم ولهجات لا يروق أدبها لنا إذا أتيح لها أن تأخذ بقسط من الحضارة فإن هذه الآداب تتغير في روحها ومادتها وشكلها .

وقد يقول آخر : اللغة هي التي تغاير لغة أخرى بأصواتها وبمفرداتها وبتركيبتها مغايرة لا يستطيع معها أن يتفاهم زيد وعمر . أما إذا كانت الفروقات في الأصوات والمفردات والتركيب من النوع الذى يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فإن هذه تحسب لهجات . أى ، بعبارة أخرى ، يضع صاحبنا التفاهم مقياساً للتفرقة بين لهجة ولهة ، ولكن هذا الزعم يسقط

من تلقاء نفسه إذا لاحظنا أن التفاهم من الأمور النسبية التي تتبع ذكاء الطرفين واتباهم ؛ وهو قد يتيسر أو يتعسر لأسباب تعود إلى أحوال المتكلم والمخاطب .

وقد يقال لنا أخيراً إن الفارق بين لهجة ولغة هو أن اللهجة تقهقر وانحطاط لغوى من لغة فصحي . وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديماً وحديثاً . فإنهم ينظرون إلى العامية على أنها انحطاط وتقهقر ، ولكن أثبتت دراسة اللهجات ، وبطريقة لا يتسرب إليها الشك . أن اللهجة قد لا تكون تقهقراً ولا انحطاطاً لغوياً Linguistic degeneration بل تطورا لغوياً فرضتهما النواميس الطبيعية التي تتحكم بمصير كل لغة . وأفضل دليل على أن اللهجات ليست انحطاطاً لغوياً في كل الأحوال ، هو كون بعضها سابقاً في الزمن للغة الفصحى . خذ مثلاً كسر حرف المضارع في العامية فإننا نقول « يَكْتَبُ يَشْرَبُ » ، ولكن كسر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الأدبية الفصحى ، فكيف يحق لنا أن نعتبر هذه الظاهرة — كسر حرف المضارع — انحطاطاً لغوياً ؟ وما لا شك فيه أن لهجة الألمان في سويسرا وألمانيا اللزاس وورتمبرغ هي أسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة ألمانيا الفصحى — أو على الأقل لا علاقة لها بها — فكيف يحق لنا أن نقول إن لهجة سويسرا الألمانية ولهجة اللزاس الألمانية ولهجة الغابة السوداء هي انحطاط لغوى من لغة فصحي ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك ؟ الحقيقة التي لا مراء فيها هي أنه لا فارق جوهري بين لهجة ولغة إنما الفارق هو أن لهجة ما ، ولسبب خارجي ، أو لظروف خاصة ، تعتبر لغة قومية رسمية ، بينما لهجة أخرى ، ربما أفضل منها ، لا يعترف بها . فلو أن التوراة الألمانية مثلاً ترجمت إلى لهجة برلين لكانت لهجة برلين الألمانية الفصحى لا لهجة هانوفر . إذاً القضية قضية « سلطة عليا » وقضية اعتراف بهذه السلطة . ما هي هذه « السلطة العليا » التي ترفع لهجة ما إلى مصاف اللغات القومية الرسمية ، والتي تهمل لهجة أخرى فتعتبر لغة رديئة ؟

السلطة العليا

إن التاريخ يُعج بالأمثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما إلى مرتبة لغة قومية رسمية . وكما نود أن نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبين كيف ارتقت هذه اللغة من لهجة وضعية إلى لغة أدبية . ولكن سرد حقائق التاريخ الجافة أمر يرهق أكثر الناس . فضلا عن أن هذا يقتضينا جهوداً نحن في غنى عنها ، لأن الواحد منا يستطيع ، إذا أحب ، أن يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات أو في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وآدابها . إنما سنكتفي بذكر نبذ عن بعضها إيضاحاً لما نحن بصدده .

تكون السلطة العليا في اللغة أحد هذه العوامل :

(أ) عامل عسكري — سياسي .

(ب) عامل ديني .

(ج) عامل أدبي .

(د) عامل اجتماعي طبقي .

وليس من الضروري أن تكون السلطة العليا عاملاً مفرداً ، أي مكوناً من عامل واحد ، بل قد يتداخل عاملان أو ثلاثة في تكوين هذه السلطة . وسنمثل لك على كل من هذه العوامل .

(أ) عامل عسكري — سياسي :

وأفضل مثال على ذلك اللهجات الروسية ، التشيكية والبلاغارية والصربية . إن هذه لهجات روسية ، ولكنها أصبحت لغات « رسمية » معترفاً بها بفضل عامل سياسي أو عسكري — سياسي . فإنه عندما استقلت هذه البلدان عن روسيا أصبحت هذه اللهجات الإقليمية لغات قومية « أدبية » معترفاً بها . ثم اعتبر لغة أسبانيا الأدبية . ما هي ؟ هي لهجة الطبقة العسكرية التي

أبليت في حروبها ضد العرب ، ونعنى بها الجيوش القسطنطينية . فقد احتلت قسطنطينيا ، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب ، مقاماً عسكرياً سياسياً في بلادها غير منازع ، وأصبحت قسطنطينيا اللغة الرسمية للسلاطنة . والناس على دين ملوكهم ، ولكنها في الأصل لهجة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية .

واعتبر كذلك لغة الرومان : اللاتينية . ما هي ؟ هي لهجة من عشرات اللهجات التي كان يتكلم بها أهل إيطاليا القدماء قبل ظهور الرومان كإمبراطورية عالمية . هي لهجة مدينة روما وبفضل مركز روما العسكري والسياسي أصبحت لهجة روما لغة الرومان القومية الأدبية ، وانتشرت في العالم بفضل الانتصارات العسكرية التي أحرزها الجيش الروماني .

(ب) عامل ديني :

وأفضل مثال على فعل العامل الديني نشوء اللغة الألمانية الفصحى واللغة العربية الفصحى . وجميعنا يعرف شيئاً عن تاريخ الحركة الإصلاحية ، وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية . فقد ارتأى لوثر بأن أفضل سلاح يستطيع به أن يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الناس ليقروها . فإن اللاتينية لم تكن لغة الحياة ، ولم يستطيع الناس أن يقرءوا كتبهم الدينية . وبما أن لوثر كان من مدينة هانوفر فإنه ترجم التوراة إلى لهجة مدينته متحدياً بذلك سلطة الكنيسة . وقد أعجب الناس بهذه الترجمة السلسلة القريبة إلى عقولهم وقلوبهم ، وعلى مر الزمن اعتبرت اللغة الفصحى . ويسمونها الألمان لغة المسرح .

وليس لنا أن نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية إلى مرتبة أدبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، لأن هذا من الأمور المعروفة التي لا تحتاج إلى تعليق . واللغة العربية مدينة بحياتها وباحتفاظها بشكلها القديم للقرآن الكريم .

(ج) عامل أدبي :

والأمثلة على كون السلطة العليا أدبية كثيرة ، نخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية ، لغة أفلاطون وأرسطو . فإن هذه اللغة كانت أصلاً لهجة أهالي أتيكا في القرن الرابع ق . م وظلت اللغة الرسمية إلى القرن التاسع بعد المسيح . وعند ما انتقلت هذه اللهجة إلى شواطئ آسيا الصغرى — أيونيا — أصبحت تعرف باللغة الأيونية الرسمية ، وهي التي كتب بها هيرودوتس . أن الذي فرض هذه اللهجة هو ما دُؤن بهذه اللهجة من أدب وعلم وفلسفة .

ومن هذا القبيل لغة إيطاليا الحديثة فإنها لهجة فلورنسا ، أو بالأحرى اللهجة التي كتب بها ونظم بها أدباء وشعراء أمثال دانتى وبترارك وبوكاتشيو .

(د) عامل اجتماعي أو طبقي :

وأفضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية أو بالأحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر . فإن لهجة باريس (أو مجتمع باريس) أصبحت المثال الأدبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناثيء أن يحتذيه .

ومن هذا القبيل لغة الانكليز فإنها كانت على وجه التدقيق اللهجة المحكية في المارلندز Midlands وهي مزيج من النكلوسكسوني قديم ونورمانى وما أضيف إليها من مصطلحات علمية من الإغريقية واللاتينية . وقد أصبحت هذه اللهجة لهجة لندن^(١) والمجتمع اللندنى الراقى . وهي لهجة تعرف بـ " انكليزية الملك ولا يغرب عن بالنا أيضاً اللغة الروسية الأدبية

(١) أما اليوم فإن انكليزية لندن لاتعد المقياس الأدبي في صفاء اللغة إن كان ذلك من جهة اللفظ أم من جهة التعبير ، وذلك لحليط الناس في هذه المدينة . ويجب ألا ننسى المنافسة بين مدينة وأخرى . فإن أهالي أوكسفورد وكمبريدج يعتقدون أن لفظهم هو أفضل لفظ وتعبيرهم أصنى وأبله تعبير .

فإنها لغة أهل موسكو . ذلك لأن أديباً نابغاً ، ليونوسوف ، كتب بها وأعجبت كتابته أهل موسكو فاقتدى به الكُتَّاب والشعراء وأصبحت فيما بعد اللغة الروسية الفصحى .

لقد ذكرنا هذه الأمثلة لنوضح أن اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها . وتكون هذه السلطة عسكرية أو دينية أو أدبية أو طبقية . أما اليوم فما هي السلطة ؟ في كل أمة من أمم الأرض جماعة ، وجماعة كبيرة ، تقول إن السلطة هي للتقليد tradition هي للسلفية ، هي لغة التاريخ ، اللغة التي تحدثت إلينا بشكل شعر أو نثر وقصص وأغان ، وكل خروج عن التقليد يعد خروجاً على الاجتماع . وأشد ما يكون الناس رجعية في نظرهم إلى اللغة ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر . فمن ذا يجرؤ في انكلترا مثلاً أن يكتب thru بدلاً من through و laf بدلاً من laugh ؟ ومن يجرؤ في انكلترا — هذا إذا أراد أن يحتفظ بمركزه الاجتماعي الأدبي — أن يقول I ain't عوضاً عن I am not وقل مثل هذا في ألمانيا وفرنسا وفي كل بلد يعتز بلغته ويفخر بأدبه . لا نعتقد أن الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن المنطق ، الفرنسي الذي أعطى العالم النظام المترى ، يتنازل يوماً عن المعادلة $4 \times 20 + 11 = 91$ مستعيضاً عنها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول ٩١ .

كيف تنشأ اللهجة

أما مؤرخو العرب وصرفيوهم فقد أشاروا إلى اللهجات العربية إشارات عابرة^(١). ولكنهم لم يحاولوا الإجابة عن السؤال ، كيف نشأت ؟ فقد تكلم الكسائي ، تلميذ الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الجاحظ كثيراً من النواذر اللغوية التي تنكس لحن العامة وعجمة بعض الناس . وتكلم ابن خلدون عن « فساد الملكة » ، « ولغة الأمصار » ، وتكلم غيره عن « لغات فاسدة » ، وعن « الرطانة » ، « والعجمة » . ومنهم من أشار إشارات إلى لهجات باندات وقرنوها بأسماء تميزها كالكشكشة والعنينة والطمطمانية وغيرها كثير^(٢). وجل ما يفهم من كلامهم أن اللهجات العربية هي انحطاط لغوى Linguistic degeneration فهم من هذا القبيل ينتمون إلى المدرسة التي تقول إن اللهجة انحطاط لغوى . وقد أشرنا سابقاً إلى فساد هذا الرأي ، وقلنا إن علم اللهجات قد أثبت بطريقة لا يتسرب إليها الشك أنه ليس ضرورياً أن تكون اللهجة انحطاطاً من لغة فصحي . فقد تكون أقدم منها في الزمن ، أو قد تمثل تطوراً وتقدماً لا انحطاطاً . إذاً علينا أن نهمل هذا الزعم وأن نفتش عن سبب نشوء اللهجة الحقيقي . ونحن نعتقد أن في مقدمة الأسباب ثلاثة عوامل :

(أ) المغيرة الفردية .

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية .

(ج) احتكاك لغة بلغة أخرى .

(١) وقد جمع هذه الإشارات العابرة مستشرق الماني اسمه Johann Frock في كتاب له نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار « العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » القاهرة ١٩٥١ مطبعة دار الكتات العربي .

(٢) الخصائص لأبن جني ص ٤١٠-٤١٢ وعنه أخذ المسيوطي في المزمهر ص ٢٢١-٢٢٦

(١) المغايرة الفردية :

لقد أثبت لنا علم اللغة أن لكل إنسان لهجته الخاصة ، وأن هناك لهجات في اللغة بقدر ما هنالك من أفراد يتكلمون هذه اللغة ! وهذه أول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة . يقولون لنا إن المجتمع الذي يتكلم أفراد لغة واحدة لا وجود له . وإذا أبدت شكاً في ذلك أدخلوك إلى مختبر الفونتيك وقالوا لك اجلس أمام هذه الآلة المسجلة وتلنظ بهذه العبارة : « ما أجمل الطقس » ، ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعال سجها لنا مرة أخرى . ثم يتركوك تقابل بين تسجيلك الأول والثاني . وستجد لنفسك فروقاً . ولكنها فروق لا تستطيع الأذن تمييزها ، إنما الآلة تستطيع ، وإذا أصررت في المعادة أدخلوك إلى غرفة مظلمة وطلبوا من صديقين لك ، لا علم لك بوجودهما هناك ، أن يتكلما . فإنك تعرف حالا أن صاحب الصوت هذا هو فلان ، وصاحب الصوت ذاك هو فلان . فإن هناك تبايناً ظاهراً في اللنظ وفي الشدة واللين والنبرة والنغم وربما في انتقاء المزدادات وفي تركيب العبارات .

تعرف هذه الظاهرة في اللغة المغايرة الفردية . ولا تظن أن هذه المغايرة تعمدية ، كأن يكون أحدها متحدثاً أو متشدقاً أو متحرجاً في لفظة ، كلا ، إنما هذه المغايرة الفردية طبيعية عفوية . ولا نعلم السبب في ذلك كما أننا لا نعلم لماذا لا تشبه حبة قمح حبة أخرى في عرمة من القمح . ولا يولد ولد يكون صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه . فكأن الطبيعة تكره الوحدة Uniformity الطبيعية تميل إلى المغايرة . وهذه المغايرة الفردية في اللغة ، جيلاً بعد جيل ، تترك أثرها في اللغة . ونحن على يقين أن العرب الأحياء يقرءون الفصحى على غير ما كان يقرؤها الفصحاء في العصر الأموي . أما من جهة التكلم فظاهر أن لساننا العربي اليوم غير لسان العرب في الأمس البعيد .

أخالك تقول : إذا ، حسب هذا الزعم ، تتجزأ اللغة بعد جيل أو جيلين إلى لهجات لا حصر لها . كلا . ذلك لأن هناك ، مقابل هذا الميل العفوي

إلى المغيرة الفردية ، ميلا آخر نحو النورم^(١) . ولكل لغة نورمها الخاص . فإن أفراد المجتمع ، عن غير وعى ، يميلون إلى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة . قد يكون السبب فى ميلنا غير الواعى للبقاء فى النورم اللغوى خوفاً من أن نخالف ما عليه الجمهور ، أو قد يكون إصلاح الخطأ الذى يحرص الآباء والجيل القديم على أن ينهوا عليه الجيل الجديد رادعاً عن الخروج من النورم ، أو قد يكون السبب خوفاً من الهزء والسخرية ، أو قد يكون تهرباً من أن نرمى بالتحذلق والتشدد والمغيرة لا لسبب سوى أن يقال عنا إننا نختلف عن الآخرين . وقد يكون هناك أسباب بسيكولوجية أخرى لا نعرف لها تعليلاً . والأسباب لا تهمنا بقدر ما يهمنا تقرير الواقع وهو أن فى كل لغة حية قوتين متضادتين ، الأولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal والأخرى تشدبه نحو المركز Centripetal . وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعاً من التوازن اللغوى الذى يعرف بالنورم . وهذا مما يبقى اللهجة ضمن نطاق معين إلى حين يؤول عمليه التجزؤ السريع .

(ب) انساع الرقعة الجغرافية

ذكرنا سابقاً أن اللغة مجرى طبعياً تسير فيه . وقد تحافظ اللغة على أصواتها وعلى صرفها ونحوها وتركيبها زمناً طويلاً إذا ظل المجتمع الذى يتكلم هذه اللغة مجتمعاً صغيراً قريباً من الموطن الأول ، أو إذا ظل مترابطاً متماسكاً متجانساً منكمشاً على ذاته ، تشدد أفراداه بعضهم إلى بعض عوامل اقتصادية وروابط وأمان مشتركة . ولكن هذا لا يعنى أنه لن يطرأ تغيير ما . كلا . بل يكون التغيير طفيفاً وبطيئاً ويظهر أثره فى الحال . أما إذا انحل المجتمع إلى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التى كانت تربطه سابقاً أو بسبب

(١) وهو النموذج العام ، أو القياس المشترك المتفق عليه فى المجتمع ، أو العام المؤلف

أو الطابع المميز . وسنستعمل لفظة نورم بشكلها الغربى تخلصاً من صعوبة الترجمة أو إلى أن يتفق العرب على ترجمة لها . ونحن إذا عجزت اللغة عن الترجمة فإننا لا نستكف عن الإقتباس .

فقدانها ، فإن المجرى يميل إلى الشعب والانقسام ، وعندها تظهر الفروقات اللغوية بسرعة ووضوح . ولكن يجب أن نلاحظ أن المهاجرين أو النازحين عن أوطانهم إلى أوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بميزات لغوية قديمة قد تكون اندثرت وتلاشت في الوطن القديم كما حدث في فرنسية مونتريال (كندا) فإنها تحتفظ بعناصر لغوية تعود إلى القرن السابع عشر وليس لها من وجود في لغة فرنسا الأم . وكذلك في برتغالية البرازيل ، فإن فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدها اليوم في لغة البرتغال الأم . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن فقدان الأعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية أخرى ككسر حرف المضارع من الأمور السابقة للهجرة العربية إلى مواطن جديدة ، وليس نتيجة العوامل التي ظهرت بعد الفتح والاحتكاك بأمم جديدة .

إن اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئته إلى مجار صغيرة مختلفة .

(ج) اصطلاح لغة بلغة أخرى

عندما تدخل لغة جديدة إلى بقعة جغرافية جديدة فإنها لا تدخل إلى فراغ لغوي . يجب أن يكون هناك قوم أو أقوام يتكلمون لغات مختلفة . وفي هذه الحالة يحدث واحد من أمرين : إما أن تتغلب لغة الفاتح فتحل المرتبة الأولى وتصبح لغة البلاد الرسمية ، أو أن تتغلب لغة المغلوبين بفضل تقدمهم في الحضارة ، أو بسبب قلة أفراد الجماعة العسكرية المجتاحة . وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء أ ماتت الأولى أم انتصرت الثانية . إن نتيجة هذا الصراع اللغوي الثقافي يظهر في اللغة . وأفضل مثال على هذا احتكاك العربية بالآرامية والإيرانية .

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربي . ولم يكن من الصعب على اللغة العربية ، نظراً للتعرب ونظراً للقربى العرقية واللغوية بين الآراميين والعرب ، أن تفرض ذاتها بفضل العامل الديني والعسكري . وقد كان

احتكاك العرب الثقافي بأهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك في كثير من المفردات الثقافية والزراعية والدينية التي هي من أصل سرياني. (١) فكان من الطبيعي أن يعتري العربية المحكية تغير كبير في الأصوات والتراكيب والتعابير ، سواء أكان المتكلمون من العرب أم من أهل البلاد . أثر السريانية ظاهر في عربية سوريا ولبنان المحكية وهذا أمر طبيعي . فعندما يقول اللبناني أو السوري أو العراقي : « شفتو لاختوك أو لختك » فإنهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراكيها سريانية فصيحة . هكذا يجب أن يقال في السريانية . فكأنه يصعب على الناس أن ينسوا نسياناً تاماً ما يسميه علماء اللغة نماذج لغوية Speech Patterns . وقد نبه أكثر من مستشرق إلى أثر السريانية في اللهجة اللبنانية السورية العراقية (موطن الآرامية القديمة) نخص بالذكر منهم العالم اللبناني المنسيور فعالي الذي كان أستاذاً للغات السامية في جامعة بوردو في فرنسا . وفي كتبهم ما يغنيننا عن الإسهاب (٢) .

أما احتكاك العربية بالإيرانية فلم يكن له من أثر في التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنسبان إليهما . ولكن التفاعل الحضارى بين فارس والعربية ظهر في المقبسات من المفردات التي تدل على نوعية التفاعل . فإن العربية مثلاً اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطبخ وفن الطبخ ، وبالمزحل وأثاثه ، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها ، وبالنظام الاقتصادى والعسكرى . وكذلك أخذت الفارسية عن العربية أكثر مما أعطتها ، فإن الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية ، غير

(١) راجع كتاب Siegmund Fraenkel : Die aramaischen Fremdwörter in Arabischen, Leiden 1886.

(٢) راجع كتاب Mgr. Michel Feghali : Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, 1923, Paris.

وكذلك راجع Etude sur les emprunts Syriaques dans les parlers Arabes du Liban, Paris 1918.

أنه لا أثر لتفاعل لغوى فى التركيب (الصرف والنحو) .

* * *

قد لا ترضى عن هذه الأسباب التى تعمل على نشوء اللهجة : المغايرة الفردية ، واتساع الرقعة الجغرافية واحتكاك لغة بأخرى . فقد تقول : مثلاً ، أليست العناصر الإنسانية فى التغير اللغوى أشد فعلاً من العناصر الخارجية : الطبيعية والجغرافية ؟ أو ليست هذه العوامل إنسانية أى أن مردها الأخير للإنسان ؟

إن علماء اللغة يسلهون بأن للطبيعة أثراً فى اللغة : المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها ، ولكن هذا الأثر طفيف ويظهر فى المفردات لا فى التركيب . واللغة بتركيبها . ولذلك ترى أن علماء اللغة يميلون إلى تعليل التغير اللغوى عن طريق العنصر الإنسانى . هناك نواميس لغوية تتحكم بمصير اللغة ولكن هذه النواميس — إذا صح أن نسميها نواميس — مردها فى آخر الأمر إلى الإنسان ذاته . هذه النواميس اللغوية هى :

(أ) تغيرات فى لفظ الحروف المصوتة (الحركات) .

(ب) تغيرات فى لفظ الحروف الصامتة .

(ح) تغيرات فى المفردات من جهة المبنى والمعنى .

(و) تغيرات فى التركيب .

ويحسن بنا أن نأخذ كلا منهما بشئ من الإسهاب .

(أ) تغيرات فى لفظ الحروف المصوتة (الحركات)

والحروف المصوتة أكثر الفونيمات تعرضاً للتغير ، وهذا التغير يضى على اللهجة المحكية مسحة تجعلها مغايرة تمام المغايرة للغة الأدبية . ألا ترى الفرق العظيم بين حركات اللغة العربية المحكية وبين حركات العربية الفصحى كما يجب أن تكون عليه عند قراءتك قراءة فصيحة ؟ إن حركات العربية الأصلية ثلاث ، قصيرة وهى *aiu* ، وتمثلها الفتحة والكسرة والضمة

وطويلة إذا تبعها الف ، ياء ، وواو فتصبح â î û . ولكن الحركات في العربية المحكية أكثر من ثلاث . فإنه فضلاً عن هذه فإن هناك حركات مغايرة للفصحى : eê ey êy oô وربما غيرها كثير . ثم اعتبر لفظ المقطعين - و* aw كما في يوم وى كما في يئت ، فإنها في أكثر اللهجات العامية أصبحت e و o كما في yôm و bêt . واعتبر كذلك اختلاس حركة وإطالة حركة أخرى خلافاً لما هي عليه في الفصحى . ففي الفصحى نقول أكتب وفي العامية « كتوب » ، وفي الفصحى نقول قم وفي العامية « قوم » . وهل سمعت أناساً يلفظون ô â ؟ أصغ إلى أهل الكورة (في لبنان) يقولون « طروبلس وجوهل وعوقل » بدلاً من طرابلس وجاهل وعاقل .

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية ، حتى أنهم لم يضعوا لها لفظاً خاصاً بها ، ونعني قضية النبرة accent وأثرها في الحركة من حيث الطول والقصر . فمن قوانين التركيب المقطعي للكلمة (syllabic structure) أنه إذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الأخير منهما طويل الحركة ، ووقعت النبرة على المقطع الأول فإن المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ كلمة Friday المركبة من مقطعين Friday (الأخير طويل الحركة) . ولكن النبرة على المقطع الأول ولذلك اختلست حركة المقطع الأخير فأصبح قصيراً ، فيلفظها الإنكليز Fraidi . ويقول اللبناني كتوب ولكنه يقول « كتب له » إن حركات اللغة تنتقل من جيل إلى جيل بالتقليد . ولكن مهما حرصنا على أن يقلد الجيل الجديد الجيل القديم تقليداً تاماً في لفظ الحركات وفي النبرة فإن هذه تظل عرضة للتغيير . وسبب التغيير هو العنصر الإنساني : الشذوذ ، الفردية ، المغايرة ، الكسل ، أو أمور إنسانية أخرى نجهلها (١) .

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة ، مثل مدرسة جامعة لندن ، ترفض رفضاً باتاً الدخول في « لماذا ؟ » « ولأى سبب ؟ » و « ماهو التعليل » يقولون ان عمل عالم اللغة هو وصف مايجرى أو وصف ماهو واقع وليس له أن يفسر هؤلاء يعرفون بالوصفيين (descriptivists) . وعندهم في ذلك أننا لا نعلم لماذا يحدث التغيير .

(ب) تغيرات في لفظ الحروف الصامتة :

ويطراً تغيير في لفظ الحروف الصامتة . فإن حرف التاء — خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدرزي في لبنان — فقد قيمته اللفظية الأولى Th وأصبح تاء ، وفي بعض كلمات سننا كما في « حيس وبحيس » عوضاً عن حيث . وأصبحت القاف همزة في بعض الأرساط ، وجما مصرية في أوساط أخرى ، وقسم من أهالي بيروت يلفظونها كافاً . وقد استبدل حرف الدال بالذال وبالزاي فيقال « كذاب وكزّاب » . ويقولون « ذلك والزى » عوضاً عن ذلك والذي . والعراقي لا يفرق حتى في الفصحى ، بين ض وظ .

لماذا تحدث هذه التغيرات ؟ ما الأسباب ؟ هل لأن حرفاً أشبهى أو أعذب من حرف آخر ؟ علم اللغة لا يأخذ بالرأى القائل أن حرفاً أسهل من آخر . هل للبيئة من أثر ، أم هو العنصر الإنساني الذي ذكرناه سابقاً ؟

إن علماء اللغة اليوم لا يهتمهم تعليل الأسباب بقدر ما يهتمهم وصف الواقع . فالتاء نعرف مثلاً قانوناً صوتياً في اللغات السامية لا يتغير وهو أن التاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والتاء في السريانية فيقال :

ثاب (عربي) شاب (عبراني) تاب^(١) (سرياني)

لماذا ؟ لا نعرف . ونلاحظ كذلك في اللغات الهندو جرمانية قوانين صوتية^(٢) ثابتة . مثلاً نلاحظ أن الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف f يقابلها في اللاتينية أو الإغريقية p فيقال :

father : pater

fine : pente

لماذا ؟ لا نعرف . إنما يهتمنا تقرير الواقع وهو أن الأحرف الصامتة ، كالأحرف المصوتة ، عرضة للتغيير ، وعمل دارس اللهجات أن يسجل هذه المظاهر ويحاول أن يضبطها في شبه أحكام .

(١) إذاً تاب إلى ربه توبة ليس عربياً بل سريانيا . يجب أن يكون في العربية تاب .

(٢) كالقوانين التي وضعها العالم الألماني Grimm وتعرف بقانون Grimm .

(ح) تغييرات في المفردات منه جهة المبنى والمعنى :

أما في المبنى فيكون التغيير نتيجة قلب مثل (أجا) بدلا من جاء ، (وخر ووعق) عوضاً عن حفر ووقع . أو نتيجة زيادة مثل رجال بدلا من رجل ، أو نقصان مثل مره عوضاً عن امرأه ، أو نتيجة نحت مثل (جاب) المنحوتة من جاء ب (واصطفل) المنحوتة من اصطف ل .

ويحدث تغيير في معنى المفردات . وهذا أمر معروف . فإنك إذا أخذت المعجم العربي — مثل لسان العرب — وراجعت بعض المفردات لأخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومها الآن وبين مفهومها في الصدر الأول . اعتبر مثلاً لفظ الباخرة والقاطرة والجريدة والمذيع والهاتف والسيارة والمحرك والتيار . . . الخ ، وبما يؤسف له أن قاموسنا العربي لا يؤرخ لنا معنى الكلمات ، أى تطور المعنى على مر العصور كما يفعل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس أكسفورد للغة الانكليزية . فإنك إذا فتشت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت أن هذه اللفظة مرت في أطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى يختلف قليلا ، وأحيانا كثيراً ، عن المعنى السابق .

(د) تغييرات في التركيب

وأكثرها راجع لفقدان الإعراب ، إذ من المعلوم أن في اللغات المعربة تدل علامات الإعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها ، وقد تكون الرغبة في حرية التصرف في ترتيب الكلمات عاملاً من عوامل نشوء الإعراب ، أى إفساح المجال للمتكلم أو الناظم أو المغنى من أن يغير مركز الكلمات في الجملة على أن تقرن هذه الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة . وذلك لأن العلاقة بين أجزاء الجملة ، في أبسط تركيبها ، كانت تظهر في الترتيب : الفاعل أو لاثم الفعل ثم المفعول به . ولكن إذا أردنا ، لسبب ما ، أن نغير التركيب وجب علينا أن نوجد علامات فارقة لأجزاء الكلمة للدلالة على وظيفتها في الجملة . ففي العربية ، وهي لغة معربة ، نجد آيات كهذه :

إنما يخشى الله من عباده العلماء (قرآن ، سورة فاطر الآية ٢٥) .
 إن الله برىء من المشركين ورسوله (قرآن ، سورة التوبة ، الآية ٣)
 وإذا ابتلى إبراهيم ربه (قرآن ، سورة البقرة ، الآية ١١٨) .
 في هذه الجمل ، وفي أمثالها . يتوقف فهم المعنى على علامات الإعراب .
 وعليه فليس من الضروري أن نحافظ على ترتيب موقع الكلمات . إذ قد يأتى
 الفاعل فى آخر الجملة والمفعول به فى أولها . ولكن إذا سقط الإعراب
 وجب التعويض عن فقدانه ، ويكون التعويض أبداً فى تغيير التركيب ، أى
 بتغيير موقع الكلمة فى الجملة . ففى عبارة أخبر خالد أميناً . . . إذا سقط
 الإعراب يصعب علينا أن نميز بين المخبر والمخبر . ولكن فى العامة حلت
 المشكلة بتقديم الفاعل أبداً فنقول « خالد أخبر أمين » .

إن اللغة ، كجسم حى ، تخضع للنواميس الطبيعية من حياة ونمو وتطور ،
 وهى شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع فى جريائها الجهة التى تلتقى فيها أقل مقاومة
 ممكنة (Line of least resistance) واللغة كظاهرة انسانية تميل إلى الاقتصاد ،
 وبكلام آخر ، نستطيع أن نعمم القول بأن اللغة فى جريانها تسير .

من الصعب إلى السهل

من الحشن إلى الناعم

من المعقد إلى الميسر

من المزخرف إلى البسيط

ولذا تنشأ على مر الأجيال لهجات مخالفة للغة الأدبية التى توقفت سيرها
 الطبيعى بوساطة سياج شائك من الأحكام والنضوابط .

[إن كثيراً من الفروق التى تشاهد بين اللغة الفصحى وبين اللهجات العامة ،
 إنما تلتهج من حاجة الناس إلى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح ،
 ومن نزوعهم إلى الاقتصاد فى الكلام .

ونذكر من قبيل المثال : إهمال الإعراب ، واختصار الصرف والنحو ،
 والاستغناء عن المترادفات :]

١ - فقدان الإعراب .

إن فقدان الإعراب — نتيجة طبيعية من نتائج السير نحو الأسهل :

اقرأ في مقدمة ابن خلدون ص (١) ٥٠٨ — ٥١١ واقرأ مقدمة ابن قزمان الأندلسي (٢) تجد أن النقمة على الإعراب قديمة العهد . وهام العرب نراهم قد أسقطوا الإعراب منذ الصدر الأول . وإذا صح الخبر عن أبي بكر أنه كان يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فالحن » (٣) وإذا صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال « أرشدوا أخاكم » وإذا صح أن عمر بن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ ، فإنه يمكن اتخاذ هذه دليلاً على أن الإعراب لم يكن متمكناً في لغة الناس قبل ظهور الدعوة . ولاتظن أن الناس أسقطوا الإعراب تعمداً ، أو خروجاً على نورم اللغة ، أو مشاغبة ، أو شعوبية ، كلا إنما سقط الإعراب من تلقاء ذاته ، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية . ونحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن إسقاط الإعراب من لغة الناس المحكية سبق نزول القرآن الكريم ، غير أن القرآن الكريم ، نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر ، ومن الطبيعي ، لا بل من الضروري ، أن ينزل بلغة الأدب والشعر والدين (٤) ونعتقد أن المجتمع

(١) طبعة بيروت ، المطبعة الأدبية ، ١٨٧٩ ، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون : في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة لغة مضر وحمر . والفصل الأربعون : في أن لغة أهل الحضرة والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة لغة مضر .

(٢) لديوان ابن قزمان نسخة خطية وحيدة في لئبنجراد . وفي الجامعة الأميركية نسخة فوتوغرافية عنها . يحمل ابن قزمان في مقدمة الديوان حملة شعواء على الأعراب .

(٣) نقول إذاً ، ونخط تحتها ، لأن الحديث ينسب إلى كثيرين . فإنه ينسب إلى كثيرين . فإنه ينسب إلى الشعبي : راجع « الإرشاد » لياقوت الجزء الأول ص ٢٦ . والغريب أن القراء يروى حديثاً عن أبي بكر يناقض الحديث السابق الذي نحن بصده وقال أبو بكر الصديق رحمه الله إن إعراب القرآن لأحب إلى من حفظ بعض حروفه » راجع Paul E. Kahle Cairo Geniza P. 116 (London 1647) .

(٤) يعتقد بعض المستشرقين أن لغة القرآن المعربة مبنية على قوانين اللغة العربية النجدية البدوية كما تتراءى لنا في الشعر ، وإن قواعد الإعراب وضعت في القرن الثاني . وقد جاهر =

الإسلامي الأول ، نسبة لإعجابه بهذه اللغة ، ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم ، جهدوا أن يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية . يدل ذلك مبلغ الجهد الذي أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي إصرار المقامات العليا على أن تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين . ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها أمر طبيعي ، لا بل ضرورة ، لكل أمة ناشئة . الدولة الناشئة بحاجة إلى لغة قومية ، لأن اللغة القومية من مقومات الأمة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين وإلى ما هنالك من مقومات .

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز ، إنما نعترض على المبدأ القائل بأن قوانين اللغة من صرف ونحو وأساليب ، لا تتغير ولا تتبدل «كشريعة مادي وفارس» ، وذلك لأن اللغة تتغير ، شئنا أم أبينا .

إن كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والإغريقية والسانسكريتية . ويظهر أن الإعراب ميزة من ميزات اللغات القديمة . ولكننا إذا أخذنا اللغة عامة وجدنا أن الميل هو لإسقاط الإعراب . فمن

= بهذه النظرية مستشرق ألماني عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذي انعقد في الجزائر ، واسمه كارل فولرز، ثم أنه وضع نظريته هذه بعد تعزيزها بشواهد من القرآن ومن القراءات ، في كتاب معروفه Volkssprache Und Sahriftsprache im

وقد رد عليه شيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في Strassburg 1906 .

Neue Beiträge Zur Semitischen Sprachwissenschaft P. Iff (Strassburg 1910 .

ويحسن بمن يهيمه هذا الأمر أن يقرأ Paule E. Kahle في .

(1) The Cairo. Geniza on P.P. 78 — 84 .

والنص العربي المعزوف إلى القراء ص ١١٥ — ١١٦ .

(2) The Arabic Readers of The Koran (Journal of Near Eastern Studies, 8, April 1949 , PP 65 — 71 .

(3) The Qur'an and The Arabiya (Goldziher ' Memorial PP. 163 — 182 .

اللغات السامية لا نجد لغة معربة سوى العربية الفصحى . قد تجد في هذه وتلك بقايا إعراب ولكن تستطيع أن تعمم القول في أن اللغات السامية (باستثناء العربية الفصحى لا المحكية) أسقطت الإعراب . وكذلك أسقطت اللهجات التي تحدرت من الثلاثينية كثيراً من الظواهر الإعرابية ، وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي .

(٢) التطور الصرفي والنحوي :

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامة ونحوها وبين صرف الفصحى ونحوها .^(١) إنما نريد أن نؤكد أن صرف العامة ونحوها يمثلان تطوراً نحو الأسهل . فاقصر العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر ، وتصريف الفعل ، واستعمال أسمى الفاعل والمفعول ، وصوغ المجهول ، وإهمال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعدد أقل ، وغيرها كثير ، جميع هذه في نظرنا تمثل تطوراً طبيعياً في اللغة يتمشى مع حاجات الحياة . وليس على المرء الذي يشك في هذا الزعم إلا أن يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة .^(٢)

ونود أن نمثل على ذلك بناحية واحدة هي « فكرة الزمن في الفعل » ، أن الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الأوروبية شعروا — ولا يمكنهم إلا أن يشعروا — أن فكرة الزمن في الفعل السامي غير محددة تحديداً دقيقاً كما هي الحال في اللغات الهندو — أوروبية . ففي الساميات ترتكز فكرة الزمن عامة على إنجاز الفعل أو إتمام الحدوث لا على فكرة الزمن ذاته . فإن كان الفعل أو الحدوث قد تم فهو ماض وإن لم يكن قد تم

(١) من يعتقد أن العامة لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المنسيور ميشال فغالي أستاذ اللغات السامية في جامعة بوردو .

Syntaxe des Parlers Arabes Actuels du Liban, Paris 1923 .

(٢) وأكثر المؤلفين من الفرنجة : ألمان وفرنسين وانكليز وإيطاليين وأوروبيين من جنسيات غيرها ، ونستطيع أن نقول أن جل اللهجات العامة قد درست ودون صرفها ونحوها وأساليب التغيير فيها .

فهو حاضر . ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمنين باستثناء العربية (التي هي أحدثها تاريخاً وأدباً) فإنها استطاعت ، بفضل أفعال مساعدة وحروف ، أن تتصرف بفكرة الزمن تصرفاً أفضل من بقية اللغات السامية . ولكن رغم هذا فإن تحديد الزمن في اللغات السامية يقصر عما هو عليه في الانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

لكن العامة ، التي لم تخضع لأحكام الصرفيين والنحويين بل جرت على ألسنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي المحتم ، استطاعت أن تعبر عن الزمن وأن تحدده تحديداً دقيقاً . فإن الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا أن جميع صيغ الأزمان الأوروبية لها مماثلها في صيغ الأزمان في العامة العربية . وليس ذلك نقلاً واقتباساً عن الفرنسية إنما مرده إلى طبيعة الإنسان عامة وإلى المشترك في تفكيره وتصوره .^(١)

(٣) - خضوع العامة لناموس الاقتصاد

من أهم النواميس اللغوية الطبيعية — ولن نذكر لك جميعها لأن هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع — ناموس الاقتصاد . الاقتصاد في اللغة مبدأ عام ، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة . اعتبر مثلاً عدد الضمائر في الفصحى (١٤) وعددها في العامة (٨) ولماذا ؟ لأن المثنى سقط ، والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع إلى أول عهد الإنسان بالعدد ، وقد سقطت هذه الظاهرة من أكثر اللغات التي كان فيها مثنى لأن ليس له ضرورة . كل ما زاد على واحد فهو جمع . وأسقطوا جمع ضمير المؤنث . وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر أحدث اقتصاداً عظيماً في تصريف الفعل ، فعوضاً عن أن نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨ ، وفي الأمر عوضاً عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول : قوم ، قومي ، قومو .

(١) راجع كتاب فعالى المذكور أعلاه ، ص ٣ — ٨١ حيث يبحث الفعل وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدة من لهجة لبنان الشمالية . ولكن ما يصدق على هذه اللهجة . يصدق على غيرها من اللهجات المحكية إلى حد بعيد .

واعتبر مثلاً عدد الكلمات فإنه في الزمن الذي كان الناس فيه يتلهون
ببهلوانيات اللغة كان للأسد أسماء لا يحضر في عددها ، وللناقة أسماء عديدة ،
وكان للسيف أسماء يصل عددها إلى المئات ، وكان للعسل ما يقرب من
السبعين اسماً ، وبطرس كرامة نظم قصيدة (أمن خدها الوردى افتتك
الخال ...) يكاد عدد أبياتها يقرب من المئة وكل بيت ينتهى بلفظ الخال ،
وفي كل بيت للخال معنى يختلف عن معنى الخال قبله . وكلمة بسيطة مثل
« الرز » ، هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام ،
له في القاموس أشكال عديدة :

« الأرْمُزُ والآرْمُزُ والأَرْمُزُ والأَرْمُزُ والأَرْمُزُ والرْمُزُ والرْمُزُ
(بفك الادغام) وربما كان الأصل الأرْمُوزُ بمعنى الانقباض » .

أما في العامية فلاسد كلمة واحدة ، وللسيف كلمة واحدة ، وللعسل
كلمة واحدة ، وانتقت العامية أسهل الألفاظ للرز ، والحمد لله على هذه النعم !

اللهجة وأسلوب درسها

فوائد دراسات اللهجات :

تعنى الأمم الراقية بدراسة اللهجات الإقليمية وتحرص على تسجيلها وضبط أحكامها وحفظ نماذج أدبية منها ، كل ذلك حباً بالبحث والكشف . وأفضل الدرس ما ليس له غاية نفعية مادية بل ما كانت غايته ذاته . هذا النوع من الدرس الأكاديمي لا يطلب جزاء ولا يسعى في مغنم ، إنما يهدف إلى معرفة الحق وإلى اكتشاف المجهول . وهل أفضل من معرفه الحق وتكشف المجهول جزاء تجزى به العقول الشغوفة التواقفة إلى المعرفة ؟

غير أننا في هذا الشرق العربي نعيش في فترة تتميز بطغيان المادة . قيمة الأشياء عندنا تقاس بقدر نفعها ، وأهميتها بقدر تماسها بحياتنا المادية . فإتنا لم نبلغ بعد ، حتى في الجامعات ، مواطن الفكر ، مرتبة من التجرد تدفعنا لدرس الأشياء لذاتها . ولكن إن كان بيننا من يطلب أجراً أو يسأل عن غنم في درسه اللهجة فإنى أرى في درس اللهجات الإقليمية ، عدا عن لذة المعرفة للمعرفة ذاتها ، ثلاث فوائد :

أولاً : إذا كنا نسلم أن اللغة كائن حى يخضع لنواميس الحياة من نمو وهرم فليس أفضل من درس اللغة الحية (العامية) درساً موضوعياً لفهم النواميس التى تعمل للحياة والنمو والموت . وذلك لأن العامية — عامية أى شعب — لغة حرة متطورة ، والفصحى — فصحى أى شعب — لغة كتابية مقيدة بقواعد ثابتة ومسيّجةٌ حولها بسياج شديد .

ثانياً : نحن من الذين يؤمنون أن فى العاميات أدباً شعبياً غنياً ازدرته الاستقراطية الفكرية . ولكنه أدب منبثق عن روح الشعب وأحاسيسه . قد تكون الصياغة فيه بدائية لكن الصور والمعانى جميلة . هذا الأدب فى صفوته غنى بصوره ، بنكاته ، بدعابته ، بأمثاله وأقاصيصه وخرافاته ،

وهو ذخيرة ضائعة ومن الحق أن يظل جوهرة في التراب .

يشكو الناس من جفاف في الأدب العربي ، من ارسقراطية أبعده عن عامة الشعب . وعندنا أن في الأدب العامى مادة للشعر والقصة والموسيقى . وإذا نحن حرصنا على درس هذا الأدب وجمعه وتنقيته فإننا قد نغنى أدبنا .

ثالثاً : ونعتقد أيضاً أن فى العامة مظاهر لغوية ، صرفية ونحوية ، ومعجمية ، حرية بالدرس . وقد يكون فى درسها إغناء للغتنا الفصيحة . إن نظرة القدامى والمحدثين إلى أن العامة لغة رديئة ركيكة ، وإلى أنها تخلف وانحطاط أفسدت على الناس تفكيرهم اللغوى . هل استوعب المعجم العربى جميع المفردات العربية ؟ هل اعترف واضعو قواعد الصرف والنحو بصحة جميع المظاهر اللغوية ؟ نحن نعتقد أن لا المعجم ولا كتب القواعد استوعبت جميع المفردات وكافة القواعد . وقد يكون فى درسنا مفردات العامة ما يغنى معجمنا — كما فعلنا عند دراستنا مفردات اللهجة اللبنانية — وفى درسنا قواعد الصرف والنحوية ما يشجعنا على التيسير والتبسيط .

الأسلوب :

قبل البدء بدرس لهجة محكية ينبغى للباحث أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد عن كل غرض أو هوى . ينبغى له أن يكون أسلوبه الأسلوب العلمى الدقيق ، لأن نتائج كل نشاط عقلى رهن بمبلغ تمثلك الموضوع مشاعر الباحث وعقله ، وبمبلغ الأمانة والدقة فى الأسلوب المتبع . نقول هذا لأننا نعلم أن بعض الناس ينظرون إلى اللهجات المحكية وعلى عيونهم نظارات ملونة . فهى ليست لغة ، هى لهجة ركيكة تتميز بالرطانة والعجمة ، سقيمة فى تركيبها ، فقيرة فى معجمها ، سخيفة فى أدبها ، سمجة فى روحها . فإذا بدأ الباحث وهذه نظرتة مال عن غير وعى إلى إثبات ما علق بذهنه عن اللهجة .

قلنا سابقاً إن درس اللغة في طريقه إلى كينونته علماً دقيقاً يخضع لقوانين العلم المطبق في حقول أخرى : مراقبة ووصف وتدوين وتجربة وافترض وبرهنة ثم إثبات أن التجارب تؤيد صحة الافتراض بإعلان النتائج قوانين ونواميس عامة . وعلى دارس اللهجة أن يتقيد بالأسلوب ، فلا معطيات مقررّة ولا نتائج مسلم بها مسبقاً .

وقد يكون من المبتذل ، ونحن بصدد الأسلوب ، أن نذكر بأن علم الفونتيك (علم الصوت اللغوي) جزء أساسي من علم اللغة العام (General Linguistic) إذ إن على دارس اللهجة أن يدونها ويضبط أحكامها الصوتية والتركيبة ، وقد يصعب عليه الأمر إن لم يكن ملماً ولو إلماماً بعلم الفونتيك . على أذنه أن تكتسب مراناً في السمع لمعرفة طبيعة الصوت ومخرجه ، وعلى لسانه أن يكتسب مراناً في إعادة الصوت لكي يدون ما يسمعه فونتيكياً برموز يكون قد اختارها لنفسه ، أو برموز من وضع غيره .

وقد تعد مسألة اكتساب المران في السمع والنطق أمراً ثانوياً إذا اعتبرنا مسألة أخطر شأنًا وهي تحليل كثير من المظاهر الصوتية والإعرابية ، فإنها يمكن أن تكون عند التحليل الأخير إما تطوراً صوتياً أو انحلالاً صوتياً . كثير من قواعد الإعلال والإدغام وسقوط الإعراب يمكن أن يفسر فونتيكياً ، فعلم الفونتيك إذا أمر لا مفر منه في كل دراسة لغوية .

ويحسن أيضاً ، قبل الشروع بدرس لهجة ما ، أن ننظر فيما سبق من دراسات حول الموضوع نفسه . فإن الفرنجة درسوا لهجات عربية عديدة وخير للمقدم على درس كهذا أن يلم بما كتب في الموضوع . فقد يكون عنده ما يضيفه أو يعدله ؛ وقد لا يكون هناك متسع للزيادة . فإن الدكتور لور Lohr درس لهجة القدس^(١) والدكتور ماتسون^(٢) درس لهجة بيروت ، ودرس

(1) Max Lohr : Der Vülgärarabische Dialekt Von Jerusalem , Giessen , 1905

(2) Emmanuel Mattsson : Etude Phonétique Sur le Dialect Arabe Vulgaire De Beyrouth . Uqsal , 1910 .

المسنينور فعالي طهجة قرية لبنانية ، كفر عيدا^(١) . فإذا تصدى أحدنا لدرس هذه اللهجات وجب عليه أن يقرأ هذه أولاً كي لا يبدل جهداً في غير مسيله .

الخطوة الأولى

يترتب على ما ذكرناه آنفاً أن تكون الخطوة الأولى عند دراسة اللهجة إعتراف من قبل الباحث أنها لغة قائمة بذاتها لها نظامها الصوتي (Phonology) ونظامها المقطعي (Syllabic Structure) ولها صرفها (Morphology) ولها نحوها (Syntax) . ولها معجمها وبيانها وأدبها . وهم الباحث أن يدرس هذه اللغة درساً وصفيّاً تقريرياً (Descriptive Analysis) لادرساً فلسفياً ، أى ذلك الدرس الذى من شأنه البحث عن العلة والسبب والنتائج . ذلك لأننا ، فى حقل اللغة ، لا نعرف العلة أحياناً وإذا أصررنا على معرفة العلة والنتائج نكون قد خرجنا عن نطاق البحث العلمى إلى دائرة الحدس والتخمين .

يشكو الناس ، مدرسون ودارسون . من تعقيد النحو العربى ، ومرد هذه الشكوى إلى أن نحو العربية نشأ وازدهر إبان بلوغ علم الكلام ذروته . فإن مفكرى المسلمين جهدوا فى أن يوفّقُوا بين قوانين المنطق والفلسفة الإغريقية وبين العقائد الدينية . فى ذاك الجوّ الفلسفى وضعت أحكام النحو وقوانين البلاغة والفصاحة . وأثر فلسفة العلة والمعلول ظاهر فى علم النحو . زيد فى جملة « زيد غنى » مرفوعة بالابتداء وهو عامل معنوى ، وزيد فى جملة « كان زيد غنيا » مرفوعة على أنها اسم كان ، وزيد فى جملة « إن زيدا غنى » منصوبة على أنها اسم إن ، والماضى مبنى لسبب ، والمضارع معرب لسبب ، ومساجد لا تنون ولا تجر بالكسر لسبب ، وجمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة لسبب ، وقد كثرت العلل وتنوعت الأسباب . وقد عزوا ، فى كثير من الأحيان ، العلة لأثر كلمة فى كلمة . ولكن فريقاً من اللغويين لم يرضوا بهذا التعليل . وقد ألف ابن مضاء القرطبي كتاباً سماه « الرد على النحاة » حاول

فيه ددم نظرية العامل . العامل في اللغة هو الانسان ذاته ، وابن مضاء القرطبي يعد في طليعة علماء اللغة المحدثين ، وله النضل في وضع التوكيد على الانسان . درس اللغة درساً وصفيّاً تقريرياً يقيناً من منزلى الحدس .

الخطوة الثانية

جمع مادة لغوية منتخبة من البقعة المنوى درسها لغوياً . قد يكون دارس اللهجة من أبناء اللهجة فيعتمد في جمع مادته على ما عنده من ذخيرة لغوية . ولكن يخشى في هذه الحال أن تكون لغته قد تأثرت بثقافته وبالبيئة اللغوية التي عايشها في المدينة ، أو في الجامعة ، أو في إقامته بعيداً عن بلده . فإن هذا الاحتكاك باللهجات أخرى وهذا الابتعاد عن البلدة من شأنه أن يترك أثره في بعض العناصر اللغوية والمظاهر الصوتية . فإننى نشأت في قرية لبنانية درزية وكانت لهجتى الأولى لهجة درزية بحثة . أما الآن فإننى لا أعتبر خير مثال على صفاء اللهجة الدرزية ، فإن ثقافتى اللغوية وسكنائى في المدينة واغترابى إلى العراق وكوفى مدرساً يحرص على صفاء لغته وحسن أسلوبه جميع هذه تجردنى من الصفات اللغوية التي يجب أن يتصف بها الدرزي القح . وإنى إذا أردت أن أدرس لهجة الدروز فعلى أن أعتمد درزياً قرريباً يمثل في لغته لهجة الدروز الصرفة .

جمع المادة اللغوية يتطلب (١) مخبراً Informer

(ب) مادة

(ح) أسلوباً

(١) أما المخبر فيجب أن يكون خير مثال على صفاء اللهجة . وخير من يمثل هذه اللهجة أبناء القرية أنفسهم رجالاً ونساءً وولداً . على دارس اللهجة أن يكسب ثقة المخبر . فإن وجود غريب في القرية يصحب آلة للتسجيل ويرغب في تسجيل كلامهم مشار للشك والتسائل . عليه أن يوضح لهم الغاية من تسجيل كلامهم ، وعليه أن يفهمهم أن التسجيل يجب أن يكون طبعياً

فلا تكلف ولا تعتمد ولا حذلقه . ذلك لأن ابن القرية يشعر عند تكلمه مع ابن المدينة أن عليه أن يتكلم كلاماً فصيحاً مهذباً . وعلى المسجل أن ينتبه إلى هذا الميل إلى التصنع في الكلام . يجب أن يظل المخبر على سجيته وعليه أن ينسى أنه يتكلم في حضرة ابن المدينة أو أمام آلة تسجيل .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن البقعة الجغرافية المنوى دراستها لغوياً قد تكون مأهولة بأكثر من أقلية دينية . ويلاحظ أن الفروقات الدينية تتبعها فروقات اجتماعية ولغوية . ويحسن بالمسجل أن ينتقى مخبراً من أوساط مختلفة إذ قد تكون في هذه الفروقات الاجتماعية اللغوية فوائد جمّة .

(ب) أما المادة فقد تكون أحاديث وأقاصيص وأشعاراً عامة وخرافات ومعتقدات وعادات . وقد يترك المسجل الخيار للمخبر أو المخبرين ، وقد يقترح عليهم الموضوع . ويحسن بالمسجل أن يجرى امتحاناً قبل التسجيل ليرى أن الحديث طبعى لا تكلف فيه ولا تصنع .

(ج) أما الأسلوب فالتسجيل الآلى . وقدماً كان دارس اللغة يلجأ إلى التسجيل المبنى على المشافهة . كان الدارس يصغى إلى الحديث ويدونه برموز فونتيكية — ولكن العلم قد أمدنا بالآلة المسجلة وكفانا النقص الذى يعترى التسجيل الفونتيكى بالمشافهة . فقد تخون الأذن صاحبها فينوته أصوات ، وقد تخونه أعضاء النطق فيعجز عن ترديد ما سمعه بدقة وضبط . أما الآلة الحديثة فإنها تعيد الصوت كما يتلظ به المخبر وبكل دقة وضبط .

وليس لنا أن نتبسط في وصف الآلة المسجلة فإن أنواعها كثيرة ، وأحجامها عديدة ، والتنافس على صنعها شديد . فترى أنواعاً مختلفة بأشكال مختلفة وبأسعار متفاوتة . منها ما هو صغير الحجم رخيص الثمن (٥٠ — ١٥٠ جنيه مصرى) خفيف الحمل ، ومنها الكبير لدور الإذاعة وللخبرات . ومن حسنات التسجيل على الشريط تمكين الدارس من سماع اللهجة مراراً وتكراراً ، ومن حسناته أيضاً تسجيل أشرطة عديدة لأفراد عديدين يمثلون

مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية . فلا يتي على دارس اللهجة إلا أن يضع شريطه في الآلة ويجلس للاصغاء وتدريب الملاحظات .

الخطوة الثالثة

دراسة اللهجة دراسة استقرائية (inductive) وصفية تقريرية (descriptive) بناء على ما يتجمع عند الدارس من مادة سجلها أو جمعها بطريقة الخاصة . ويحسن أن تكون دراسة اللهجة على مراتب :

(أ) مرتبة الصوت Phonology

(ب) مرتبة الصرف Etymology

(ج) مرتبة التركيب أو النحو Syntax

ولا يقف حد المراتب عندهذا العدد . فلك أن تدرس اللهجة أيضاً على مرتبة المعجمية (Lexical level) ومرتبة التركيب المقطعي (Syllabic structure) ومرتبة الأسلوب وبدخل فيه نواحي البيان والبلاغة ، ولك أن تقتصر على المراتب الأساسية الثلاث التي ذكرناها أعلاه .

(أ) مرتبة الصوت

لكل لغة أصواتها اللغوية التي يطلق عليها مصطلح علمي « فونيم » ، وجمعها فونيمات تميزها عن سائر الأصوات الطبيعية التي لا تدخل في نظام أصوات اللغة . ليس كل صوت هو صوت لغوي . ولا يتوهم أن عدد فونيمات اللغة يتفق عدداً مع حروف هجاء تلك اللغة . كلا . فإن فونيمات اللغة أكثر عدداً من حروف هجائها . فالانكليز عندهم فونيم ث ويرمزون إليه ب Th وعندهم فونيم ذ ولا رمز خاص له . ناهيك عن أن للفونيم الواحد ظلالاً من التغيرات الطفيفة التي تطرأ عليه تبعاً لوقوع حرف ما قبله أو بعده . إذاً وضع رموز فونيمية شاملة لنقل أصوات اللغة بدقة وضبط أمر ضروري جداً .

وتجدر الإشارة إلى أن الحرف العربي الخالي من الحركات المصوتة

لا يصح رموزاً فونيتكية دقيقة لنقل أصوات لهجة عربية أو لغة غير عربية . وذلك لأن حركات اللغة العربية الأصلية ثلاث : قصيرة وهي u.i.a وطويلة وهي u.i.ā ولكن اللهجات العربية المحكية واللغات الأجنبية أغنى في نظامها الصوتي فهناك e و e و o و o وهناك أنواع مختلفة للفظ a فإنه في سائر غيره في صار و u في سور غيرها في صور . فكيف نستطيع أن نقل هذه الأصوات بالحروف العربية وبالحركات العربية ؟ إن هذا غير ميسور . علينا حتماً أن نلجأ إلى الحرف اللاتيني إلا إذا أردنا أن نضيف إلى الحروف العربية رموزاً جديدة لفونيمات لا وجود لها في النصحي .

أما الأنظمة المتبعة في نقل الأصوات اللغوية من لغة إلى أخرى — ويسمونها Transliteration — فكثيرة ومتباينة . لكل أمة نظامها ، أو بالأحرى لكل مؤسسة عليية نظامها الخاص . فالموسوعة الإسلامية لها نظامها ، وقاموس أوكسفرده نظامه ، والجمعية الجغرافية الملكية لها نظامها ، ومجلة Z.D.M.G. لها نظامها ، وغيرها كثير . غير أن أفضل هذه الأنظمة جميعاً في نظرنا هو النظام المعمد^(١) الذي أقرته جمعية الفونتيك الدولية : The International Phonetic Alphabet فإنه نظام شامل يستطيع المرء بواسطته أن ينقل كل صوت لغوي في العالم . ومن جملتها اللهجات العربية . وقد لا يرضيك هذا النظام أو ذاك بل تفضل أن تضع نظامك الخاص . فإني لا أعرف دارساً لللهجة لم يضع نظامه الخاص . ولا اعتراض على هذا ، شريطة أن تضع ثبته في أول الدراسة ، وشريطة أن تتبعه بدقة ونظام كي لا تشرش على القارئ . ومن قبيل الاقتراح فقط ثبت لك نظامنا الخاص في نقل اللهجات بالحرف اللاتيني :

رموز صوتية

افتراج

Consonants الحروف الصامتة

الرمز

مقابله بالعربي

ʔ or ʕ

همزة

b

ب

t

ت

θ or Th

ث

j

ج

g

ج مصرية

h

ح

x or Kh

خ

d

د

d or dh

ذ

r

ر

z

ز

s

س

ʃ or sh

ش

s

ص

ʒ

ض

t

ط

ʔ or ʕ

ظ

Consonants الحروف الصامتة

الرمز

مقابله العربي

l or gh or غ as it is in Arabic (حرف g اليوناني)

f

ف

q

ق

k

ك

l

ل

m

م

n

ن

h

هـ

w

و

y

ي

ai

أي

aw

أو

ʃ or c or ع as it is in Arabic

الحروف المصوتة

Vowels

القصيرة	الطويلة
a داراس في مثل دَرَسَ	ā باع في مثل باع
i لبس في مثل لبس	î ثين في مثل ثين
u ربع في مثل رُبِع	û رؤوس في مثل رؤوس
e رايح في مثل رايح	ê فين في مثل فين
o كتابكُن في مثل كتابكُن	ô لون في مثل لون

ملاحظة عن الحروف المصوتة

من المعروف أن لهذه الحروف أكثر من لفظ واحد فإن a في كتاب سماع، رايح ماضى تختلف. فانها في كتاب وسامع عمالة إلى حرف e بينما في رايح وماضى عمالة إلى o أى إلى التفخيم. وعليه يجب على دارس اللهجة أن يضع ل a المالة رمزاً وللمفخمة رمزاً آخر هكذا:

ā (على سبيل الاقتراح)

وكذلك إذا لحظ دارس اللهجة أن هذه الرموز لا تكفي للدلالة على حركات اللهجة عليه أن يضيف إليها رموزاً أخرى أو يكتبني بهذه مع إضافة فرق كما هو متبع في كتب المستشرقين الذين درسوا اللهجات.

إن دراسة اللهجة في هذه المرتبة، مرتبة الأصوات، تتناول أخطر ناحية في اللغة وأكثر الظواهر تعقيداً، وذلك لأن اللغة مجموعة أصوات تتعرض للتغير الدائم. وأول خطوة في هذه المرتبة تقسيم الأصوات إلى قسمين طبيعيين: الحروف المصوتة والحروف الصامتة فيصف طبيعتها ومخرجها وما يطرأ عليها من تغيرات تبعاً لوقوعها في الكلمة وتبعاً لما يسبقها ولما يتلوها من حروف. ثم يدرس قضية النبرة (accent) التي يعبرها لغويو العرب أقل

انتباه فإنها على جانب من الأهمية وذلك لآثارها في طول الحركة وقصرها واختلاسها .

(ب) مرتبة الصرف

وتستعمل كلمة الصرف هنا بالمعنى الذى تتضمنه اللفظة الغربية Morphology أى العلم الذى يعنى بالشكل والبناء وبالتغيرات التى تطرأ على الكلمة المفردة من سابقة (Pr.fix) وواسعة (infix) ولاحقة (suffix) ومن تصريف مع الضمائر ومن إعلال وإدغام . هذه الظواهر تقع فى حقل الشكل والهيئة (morphology) . فإذا كان درس اللهجة فى هذه المرتبة يتناول الكلمة المفردة وجب علينا إذن أن نعيد تقسيم الكلمة على أسس جديدة . ونحن نؤثر تقسيم الكلمة المفردة إلى ستة أبواب :

- (١) الفعل
- (٢) الاسم
- (٣) الصنة
- (٤) الضمير
- (٥) الظروف
- (٦) الأدوات^(١)

ولابأس فى إسقاط البابين الأخيرين ، الظروف والأداة ، فى هذا الطور من الدراسة وإرجاءهما إلى مرتبة التركيب (النحو) وذلك لأن أكثر الظروف مبذية ، وجميع الأدوات مبذية ، ومعنى هذا أن شكلها لا يتغير فلا تدخل فى باب الصرف (morphology) لأن علم الصرف يعنى بتغيير الشكل ، وأشكال هذه لا تتغير ، إنما عملها فى غيرها ، فى التركيب .

ولا يسعنا التبسط فى درس هذه الأبواب لأننا فى معرض درس الأسلوب . ولذلك نكتفى بمخطط لدرس الفعل يكون نمطاً يقاس عليه سائر

(١) يدخل فى هذا الباب جميع أنواع الحروف .

الأبواب . فإني إذا أردت درس الفعل ، في مرتبة الصرف^(١) فإني أدرس النواحي التالية :

(١) أوزان الفعل

(ب) تصريف أوزان النعل ماضياً ومضارعاً وأمرأ .

(ح) ما يشتق من النعل : اسم الناعل والمنعول واسم المكان والزمان والآلة والمصدر .

ونقتصر على ذكر أوزان النعل في لهجة قرينتنا (رأس المتن) وهي قرية لبنانية أكثرية ساكنيها من الدروز . فقد وجدنا من دراسة نصوص جمعناها ، أن أوزان الفعل في لهجة هذه القرية اللبنانية هي :

(١) المجرد الثلاثي فعل : كتب شرب مشى نسي (مشى نسي) قام ، عد رمى (رمى) قرأ .

(٢) فَعَلَ مثل علم .

(٣) فاعَلَ مثل سائر جاهر .

(٤) افعل لا وجود له بل يلاحظ أن كل افعل في النصيح يصبح فَعَلَ في هذه اللهجة مثل تلف طعم تعب تقن (بدلا من أتلِف وأطعم وأتعب وأتقن) .

(٥) تَفَعَلَ مثل تكلّم .

(٦) تَنَاعَلَ مثل تقاتل .

(٧) اَنْفَعَلَ يصبح فَعَعَلَ مثل نكسّر نجرح .

(٨) اِفْتَعَلَ يصبح فَعَعَلَ مثل حَتَمَلَ .

(٩) افعل فقط من الألوان ويصبح فَعَلَ مثل حمّر .

(١٠) استفعل ويصبح سَتَفَعَلَ مثل سَتَخَدَم .

(١١) الأفعال الرباعية وهي كثيرة في لهجة لبنان وقد وجدنا أن المجرد

(١) لأن درس الفعل يدخل أيضاً في مرتبة التركيب (النحو) .

الثلاثي يصبح رباعياً بإضافة حرف إلى الثلاثي . بعض هذه الحروف التي تزداد : ي و ن ر م ب ش فيصبح لدينا أوزان مثل : فَيَنْعَل (أو فَعْنِيل) فَوَعَل (أو فَعْنُول) ففعل ، فرعل ، فبعل (أو فبعل مثل غلبط) شَفْعَل مثل شَقْلَب وشلهب . وهناك أوزان أخرى مثل فَعْلَن بإضافة النون في آخر الفعل مثل رَوَحَن ، تَرَوَحَن عَشَوَن .

ثم إن هذه الأوزان يجب أن تدرس عند ما تصرف مع الضمائر ماضياً ومضارعاً وأمرأ . ثم يجب النظر في المشتقات : اسمي الفاعل والمنفعل والمكان والزمان والآلة والمصدر من جميع هذه الأوزان . ويجب أن تكون هذه الدراسة مبنيّة على شواهد من المادة المسجلة أو المسموعة .

(ج) مرتبة التركيب أو النحو

وجوهر اللغة التركيب . توضع المفردات وتهرم وتموت ويحل محلها مفردات جديدة ولكن العنصر الثابت في اللغة التركيب . تستطيع أن تتعلم مفردات لغة أجنبية كما أثبتتها القاموس ولكنك إذا لم تتعلم قواعد التركيب فإنك لا تستطيع أن تقول شيئاً في هذه اللغة سوى الإشارة إلى الأشياء مع ذكر الألفاظ الموضوع لها وذلك لأنك لا تعرف التركيب . إذا التركيب جوهر اللغة . إنني إذا أردت أن أدرس التركيب (النحو) في لهجة ما فإنني أتبع المخطط التالي :

(١) صيغ الفعل الزمنية : الماضي والحال والاستمرار والمستقبل . ويدخل في هذا الباب استعمال اسم الفاعل للدلالة على الزمان مثل ماثنى وراكب .

(ب) الجملة البسيطة والمركبة (الإخبارية والإنشائية) .

(ح) الاستنهام والنفي والتوكيد وأدواتها .

(د) المطابقة : الفعل لفاعله والصفة لموصوفها ، والمفاضلة مثل غنى ، أغنى من ... ، أغنى الناس .

(هـ) الموصول .

(و) أفعال مساعدة .

(ز) الظرف .

(ح) أسماء العدد وأحكامه .

(ط) الأدرات ومعانيها واستعمالها .

هذا مخطط عام لدراسة اللهجة . وقبل أن ننهي الكلام عن الأسلوب نذكر الباحث أنه قد يتناول في درسه مرتبة أخرى من مراتب درس اللغة فقد ينظر في معجم اللهجة ، وقد ينظر في أساليب البلاغة فيها ، وقد يعنى بأدبها وبجمعها ونشره ، وقد يكتفى بالناحية اللغوية الصرفة كما ذكرنا في المخطط . ولا يغربن عن البال أن كل ناحية من نواحي اللغة ، لا بل كل ظاهرة بسيطة تتطلب تقصيًّا وجهدًا . فإننا نعرف علماء حصروا جهودهم في ناحية ضيقة كأن يدرس الواحد منهم الفعل فقط أو الإسم أو حرف الهمزة وما يطرأ عليه من تقلبات . إذاً يحسن بدروس اللهجة أن يكبح جماح طموحه فيقصر درسه على ناحية محددة فيدرسها درساً مركزاً لا يبقى معه مجال لمستزيد .

جغرافية اللهجات

ومن الدراسات الطريفة المتعلقة بدراسة اللهجات وضع خرائط لغوية تبين الفروقات اللغوية التي تتميز بها بقعة عن أخرى . ففي لبنان مثلاً طريقتان للتلفظ بحرف القاف . منهم من يلنظله على طريقة العربية النصحى ق . ومنهم من يلائظه همزة ، فيقولون « إلتلثو » (أى قلت له) و « قلتلثو » . وهناك ظاهرة أخرى في لبنان وهي أن بعض المسلمين في بعض المناطق يلغظون القاف كافاً حتى في قراءة العربية الفصحى ! وبعض اللبنانيين ، عند تعبيرهم عن صيغة الزمن الحالى عندما يكون الفعل أو الحدث مستمراً ويقابله (Present Continuous) يقولون « عم يا كل » ، ولكن بعضهم يقول « من يا كل » ، أى هو في سياق عملية الأكل . فإذا أراد دارس اللهجة أن

يبين للناس مواطن القاف الفصيحة ومواطن القاف المتغيرة إلى همزة ، ومواطن د عم يا كل ، ومواطن د من يا كل ، فليس عليه إلا أن يأخذ خريطة للمنطقة الجغرافية ثم يبين على الخريطة المواقع التي فيها تبدو المظاهر اللغوية التي هو بصددتها . وقد يرسم خرائط عددها عدد ما يتخذه من مظاهر لغوية انتقاها لنفسه . فقد يأخذ تركيباً غريباً ، أو لفظة غريبة ، أو أصواتاً لغوية غريبة ، ويتعقبها على الخريطة . وإن يتم له ذلك إلا بعد أن يكون قد زار المناطق هو بنفسه للتأكد من صحة الأمر . وانا لنجد في البلدان التي تمنى بدراسة لهجاتها العامة عدداً كبيراً من الخرائط اللغوية لكل ظاهرة لغوية فريدة . فإنك قد تجد في فرنسا مثلاً خريطة لحرف الراء ، حرف الراء حيث يلفظ كما يجب أن يلفظ حرف الراء ، وحرف الراء المتغير إلى غ . قد يرغب أحدكم في دراسة حرف الجيم مثلاً وكيف يتغير النطق به في مختلف البقاع العربية فتظهر الخريطة وإذا بمصر تقع في المنطقة حيث يُتلفظ به g والعراق حيث يتلفظ به d i ولبنان حيث يتلفظ به l .

اللهجة اللبنانية

مقدمة تاريخية

كان لبنان نهاية مطاف أقاليم عديدة ، عرقية ولغوية ودينية ، نزحت إليه هرباً من اضطهاد ، فوجدت في وديانه وجباله حى تستطيع فيه العيش بأمن وحرية . وقد حافظت هذه الأقليات على عاداتها وشعائرها وطقوسها ولهجاتها . ولذا كان لبنان معرض أزياء وعادات ولهجات .

وقد مرت هذه البقعة الجغرافية في أطوار تاريخية مختلفة ، وعرف أهلها ، إلى جانب اللغة الأصلية ، لغات أخرى عديدة ، مصرية ، حثية ، بالمية ، آشورية ، فارسية إغريقية لاتينية ، عربية ، تركية ، ولكن تعاقب هذه اللغات لم يكن لينزع اللغة الأصلية الآرامية (باستثناء العربية التي حلت محلها تدريجياً) التي لا تزال آثارها في أسماء القرى والمدن وفي اللهجة العربية المحكية في لبنان .

والآراميون بمجموعه قبائل سامية توطنت سوريا والعراق وشمال الجزيرة العربية ، وجمعهم تشكل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب ، طلباً للماء والمرعى . وأول ما نلتقى بهم في التاريخ نجدهم بدواً رحلاً في شمال الجزيرة العربية . ثم إنهم حوالي ١٥٠٠ ق . م نزّلوا شواطئ الفرات الأوسط ومن هناك اتجهوا غرباً نحو سوريا ولبنان . ولم يكونوا قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل متحالفة ، منها قبيلة الحبيرى التي يرد ذكرها كثيراً في رسائل تل العمرنة ، تلك الرسائل التي بعث بها أمراء سوريا ولبنان وفلسطين إلى امنحوتب الثالث والرابع طلباً بالإمداد العسكرى لصدهجمات البدو الزاحنة من الشرق والجنوب . ولكن مصر آن ذاك كانت غارقة في نزاع دينى . وقد أسس الآراميون دويلات أو إمارات عديدة شأنهم في ذلك شأن الموجات السامية الأخرى التي لم تستطع أن تتوحد ، فكان العنصر الصحراوى

القبلي عميق الأثر في الحياة السياسية . وتذكر لنا أسفار التوراة — والتوراة مصدر تاريخ قيم لدراسة الشرق الأدنى القديم — جملة من هذه الدريلات منها آرام نهر ايم (أى العراق القديم) وآرام دمشق (أى سوريا وقد سميت بالناصرمة دمشق) وآرام صوبا في سوريا المتوسطة وآرام معكة في فلسطين . وليس لنا أن نساير هذه الدريلات في تاريخها السياسى ، إنما يه منا من أمرها ذكر حقيقتين : أولاً إن الآراميين هم الذين نشروا الهجاء الذى وضعه الفينيقيون في جميع أنحاء الشرق الأدنى فإن لغتهم حوالى ٥٠٠ ق . م . أصبحت اللغة العامة الرسمية (lingua Franca) في جميع أقطار الشرق الأدنى القديم . فقد حلت محل الكنعانية والعبرانية . وكانت لغة السيد المسيح على الأرض الآرامية لا العبرية كما يظهر من التنف القليلة التى نقلت عن لسان السيد المسيح . وقد جعلها الفرس اللغة الديبلوماسية . ثانياً عندما تنصرت هذه الشعوب الآرامية — ويدعون أن تنصرهم حدث بعد موت المسيح مباشرة — غيرت اسمها من شعوب آراميه إلى « سورية » ومن لغة آرامية إلى لغة « سورية » وفي مصلحننا اليوم سريان وسريانية . وذلك لأن هذا الاسم « آرامى » كان يذكرهم بوذيتهم ، وفي العبرية لفظة آرامى معناها وثنى . وقد كان تنصرهم سبباً في وقوعهم تحت تأثير الهلالية فكانت الإغريقية واللاتينية من اللغات التى تدرس في مدارسهم . وقد ترجموا إلى السريانية كثيراً من كتب الرياضيات والطب والفلسفة . وفي العصر العباسى لعبوا دوراً هاماً في الترجمة وفي نقل الفكر الإغريق إلى اللغة العربية . غير أنهم في القرون الثلاثة أو الأربعة السابقة لظهور الإسلام انقسموا على ذراتهم حول آراء دينية لاهوتية تتعلق بطبيعة المسيح ومريم العذراء وطقوس الكنيسة فانقسموا إلى كنيستين شرقية وغربية يعقوبية . وكان لهذا الانقسام الدينى أثره السياسى واللغوى .

إن لغة لبنان قبل الفتح العربى كانت لهجة سريانية أى آرامية ، وطابع هذه اللغة ظاهر في أسماء القرى والمدن وفي مفردات اللغة ، وأهم من هذا كله في تركيب اللغة .

يظهر أثر الآرامية في لهجة لبنان في : لفظ الحروف خرف الذال أصبح دالا فيقال كذاب^(١) ، وكل ثاء أصبح تاء . وأدخلت حروف مصوتة جديدة o oê e القصيرتان والصويلتان .

وفي الضمائر فإن اللبناني عندما يقول (ena) فإنما هو في الواقع يلفظ (ena) السريانية ، وعندما يقول كتابو كتابهن (أو كتابن) وهي (هم) فإنه يتلذذ بهذه الضمائر كما كانت في اللغة الآرامية ، إذ يصعب على أى شعب يتخذ لغة الناطق أن يبنى النماذج اللغوية الأصلية في لغته .

الفعل : ويظهر أثر الآرامية في الفعل ، في كسر حرف المضارعة وفي صيغة الأمر وفي حركة الناقص في صيغة الماضي (رمى غنى) .

المفردات : ويظهر أثر الآرامية في كثرة عدد المفردات الآرامية الباقية في اللغة المحكية فإن عددها يصل إلى المئات وهو جزء من صميم الحياة اللبنانية القروية .

التركيب : أما أهم أثر للآرامية فهو في التركيب . وقد قلنا سابقاً إن التركيب جوهر اللغة . فإليك عندما تقرأ نصاً سريانياً وترجمه ترجمة حرفية يتبادر حالا إلى ذهنك التركيب اللبناني العامي . ومن هذا التركيب ما يعرف بلغة أكلوني البراغيث فإن هذا التركيب سرياني فصيح وعليه نقول في لبنان أجوا الضيوف وطعموني الجيران غيب . وعندما يقول اللبناني شفتو لحيك وأكاتها للتناخه فإنه يستعمل مفردات عربية في تركيب سرياني فصيح . وعندما يقول اللبناني بحب أشغل وبريد آكل ولازم يحى فإن حذف « أن » التي تتوسط بين الفعلين متأثر بالتركيب السرياني .

ولكن ، ذكرنا لكم سابقاً ، أن علم اللغة الحديث يتغاضى عن معرفة الأسباب والعلل ويترك التاريخ جانبا . همُّ دارس اللغة وصفها وصفاً استقرائياً تتمريراً ، ولذا سنختم أحاديثنا بنماذج من اللهجة اللبنانية نثراً وشعراً ، تاركين لكم أمر دراستها على ضوء ما ذكرناه لكم عن أسلوب دراسة اللهجات . ولابد من الملاحظة أن كتابة أية لهجة عربية بالحرف

العربي الخالي من الحروف المصوتة لا تساعد القارئ على قراءتها قراءة صحيحة، وكان الأولى بنا أن نكتبها لكم بالحرف اللاتيني كما اقترحنا آنفاً على دارس اللهجة، ولكن خوفاً من مشا كل الطبع سنثبتها لكم بالحرف العربي.

من «رسائل شمونة»

(نشرت تباعاً في مجلة الدبور الأسبوعية سنة ١٩٢٨)

وهـ رسائل شمونة، قصة قروية تصور تطور الحياة الريفية والمدنية في لبنان. وهذه القصة مكتوبة باللغة العامية الجبلية، ولكن بما أن كتابة العامية بالحرف العربي أمر غير ميسور فإن القارئ يختار في قراءتها، أهى عامية أم نصيحة؟ وقد اخترنا أن نكتبها كما هى مطبوعة في الكتاب على أن نعيد كتابتها بالحرف اللاتيني لتظهر حقيقة النطق الذي أراده المؤلف حنا الخوري النخالي.

أما القصة بنسبة جداً في حداثتها. تدور القصة حول فتاة يتيمة الأب اسمها شمونة. تزك شمونة القرية رغم إرادة أمها وعمها وتهبط إلى المدينة للعمل خادمة في بيت من بيوت الأغنياء. وقد كان وقع الحياة المدنية على هذه الفتاة الأمية الساذجة الماهرة شديداً فلم تقو على مقاومة التجارب الغريبة التي تعرضت لها. وبعد اختبارات مرة تعود شمونة إلى القرية نادرة نفسها للخدمة المجانية في المستشفى زهداً في الحياة وتكفيراً عن زلتها.

وأثناء إقامتها في بيروت كانت تبعث برسائل إلى أمها في القرية تصف فيها وصفاً واقعياً الانصباعات التي تركتها المدينة في نفسها. وكانت أمها ترد على هذه الرسائل وتكثر فيها النصيح والإرشاد والتحذير من مغبة الاسترسال في حياة المدينة. فجاءت هذه الرسائل سجلاً صادراً لحياة القرويين في القرية ولحياتهم إذا هبطوا المدينة. وإليك مثالين على هذه الرسائل: الرسالة الأولى من شمونة إلى أمها تعلها أنها أخيراً قررت «السترة»، فارتضت أن تزوج من لبناني عائد من أميركا الجنوبية اسمه «ميك»، أما اسمه قبل هجرته فكان «مخول»، وميك كبير السن على شيء من الغنى وطيبة القلب. والرسالة الثانية من أم شمونة وفيها تعبر عن القلق الذي يساورها من جراء التأخر في إخبارها عن يوم العرس وتلاح الأم على ابنتها أن تستخير الله ولا تتردد إذ ليس لها الآن إلا «السترة».

« شمنة مخطوبة »

والدتي الحنونة

مثلاً بتغيب شمس المسا بالضيفة هيك يا والدتي صرت أشعر أن أيام
العزوبة عم تغيب شمسها .

من اليوم بلشت أشعر بدقة قلب ورجفة بالمناصل ، وإذا كان الاستعداد
للزواج هيك قديش بدها تكون العيشة صعبة فيه .

المثل بتقول : لما بتخلق البنث بتبكي عتبة البيت وبتحزن . وكان بقول

المثل : بتخلق البنث وبتخلق هما معا . الحق مع الأمثال وما في مثل كذب .

البنث بتتعب أهلها كف ما كانت . إن كانت حلوة بتتعبهم ، وإن كانت

شذيفة بتتعبهم . بالأول يكون همها تزوج ولما بتزوج بتتجمع عليها كل الهموم .

رزق الله لمن كنا بنات صغار ما نهتم بغير الأكل وئيم الهوا . نهتم

نعمل من الشرطي لعب . نهتم بلعبة الحبل ، نهتم بلعب اللقوطة . خبزنا

مخبوز ومويتنا بالكوز .

كبرنا ما شاء الله ولما كبرنا كبر الهم معنا . صحيح لعبنا وضحكنا وقضينا
أيام حلوة لكن بلشت الأيام السوداء .

الحدة كان يوم الخطبة اليوم إلى كل بنت بتنذر نذر حتى توصل لو ،

وأهلها ما يصدقوا إيتايحيها اليوم . وأنت مقنورة مثل باقي الأمات من وقت

ما كبرت وأنت ناطرة هل اليوم — ومن حسب أنك بدك تكوني أنت

بيلاذ وأنا بيلاذ ؟

كنت مفكرة يوم خطبتي تزمي القرايب وأهل الضيفة وتعزى بونا

الخوري حتى يصل على الأراعي . ويبجي عمي بوسركيس يلبنى خاتم الخطبة

بايدو . وبتعمل المعازيم معكرون وتقدمي لهن تين وجوز . وبيتدي قول

القرادي والمعنى . وبتمسكيها الكباية وتشربي عرق كرمال المعزومين ،

وبرقصي وبتضحكي وبتقولي : « إن شا الله منكافيم وقت فرحة ولادكن ،

والعزاني نفرح منهن ، وإلى ما عندهن نقشع لن . ، تأتي يوم ييجو بنيات الضيعة وبقولك شو بدك يا أم شموه ، شو يلزمك حتى نساعدك ؟ . كهي بتخيط محرمي وهذيك بتحيك خرج يمانديل . كلو هذا راح كانوا ما كان ، وبعد جمعة بتصير شموه كأنها ما كانت . والجازة جنازة . لكن ما لقيت ليلة الخطبة ثقيلة لأنني هيك كنت منتظرة . ضحكت وتصنعت وعملت حالي مبسوطه ، لكن إن ضحكت على العالم بقدر أضحك على نفسي ؟

مهما كبرت نفسي بظل أشعر إني زغيرة . مهما تحسنت وتبودرت بقدر شيل تجعود وجي ؟ مهما قالوا الناس عن مليحة وآدمية ياهل ترى بقدر أنكر إني ما . . . بقدر رد حكي الناس عنى ؟ آه يا أمي كل شيء يتعوض ، المال يتعوض ، خسارة الأهل والرزق يتعوض لكن الشرف ما بطن إن خسرو حدا بيتقدر يعوضو ، وخصوصا البنات ما بتقدر تمحي غلطتها .

كل ما شفت شب يما رجالي كان لي معو سابق معرفة بحس كأن حربته عم تشك في خاصرتي . وصرت شوف إن كل الناس عيون عم تطالع في . كأنني بسمعهم عم يقولو : و لك كهي ما كانت صانعة بيدت فلان ؟ مش هي ال كانت تحاكي الدكنجي ؟ هي صفتا هي نعتا لكن ال بسليني يا والدتي إن المتلي كتار وكتار إلى وقعوا وقعة أكبر من وقعتي .

بكرا يعرفو بذات الضيعة إني انخطبت . قل لي مثل ما بتقول كل أم عن خطيب بنتها : إن شاء الله ولكن بتحظو حظوة شموه !

خبرهن إن ليلة الخطبة كانت ليلة حلوة كثير ولو ما يكون في مانع حداد من جهة الخطيب كان عزم كل أهل الضيعة . قولي هيك — هذا الدارج في بيروت ، وسلي الحى بقشر البطيخ ووعديهن إنك بتشيلي الفرق يوم العرس . هذا إلى بخبرك بالاختصار . أما من خصوص ميك بتشوفيه مش مصدق إن كنو خطب يما لا . بقص و بجيب ويعزق مصريات من غير داعي . كانت سهرتو للساعة تمانى صار يغطها للساعة حدعش وليالى للساعة تنعش .

بالحقيقة إنه بسلي . ييقعد يخبرك شو صار له بأمركا وشو شاف بالنهار ومن
حاكاه ومن حاكى ، وأم الياس بتحب الخبار . ومرة سمعت لك ياه عم يتساير
مع أم الياس . قلها

كنت مفكرة أطلع لى شى مشوار شق عليك لكن بالحقيقة ما بقالى
عين أطلع للضيعة . واصل لك شوية مصارى ، مصروف الهنا . وأنا
لو تزوجت مش ممكن أتخلى عنك . بها الجمعة الخياطة بتخلص ولحد هلق
ما قررنا وين يكون الإكليل . راح أعمل جهدى تابت جيبك لعندى
بعد ما نصقى على رأى .

ما فى لزوم تخبرى عنى شى . صحى مايحة وطمتينى عنك بها البرد ،
لفلقى حالك مليح لأن شهر شباط شهر منحوس ولا تنسش انو شهر
عجائز كان .

بتك شمونة

« طارت شمونة »

ولدنا العزيز شمونة

رآنا العجب يا شمونة . صر لى زمان منتظرة مكتوب الإكليل ولحد
هلق ما حظيت بمكتوب ولا عرفت شو جرى ولا شو صار .

كل يوم عمك بو سر كيس بقلى اليوم منواف حالنا نزل نهنيكى .
شو القصة ؟ شو الحكاية ؟ العسى ما يكون حصل شى يشغل الفكر . بس
ما يكونو المبغضين خوطر ولو فكره لعريسك أو تكونى أنت تغيرت فكارك
بنصحك يابتنى وباكل من بيتنا . لا تقلى ولا صرارة . اتركلى على الله
ولا بقا تغيرى فكرك . مين بذك تنطرى ؟ شو فكرك راح يحى ابن السلطان
عبد الحميد بعد ياخذك ؟ هذا حظك وهذا نصيبك .

بعد ما تتجوزى بتشوفى ، وتبقى قولى أمى هاخر فانة حكمت . كتار قبلك

علقوا علقتك وصابهم مثل ما صابك ، بالآخر رجعو ستروا حالهن وعاشو
 بخوف الله ، ما حدا عقل وندم ياشمونه . أنا بهمني تتجوزى تتكفى لسانات
 العالم عنك . بتاخذى ميك ، بتاخذى غيره ، مش فارقة معى . الى بتجوزيه
 اللك اتى . لا راح أنا بتجوزو ولا عمك بو سر كيس . نحنا تجوزنا
 وشبعنا جازة . حاج بقايا بنتى ! جرصونا أهل الضيعة . وانت مش قاعدة
 هون تتسمعى بدينتك . انطبلت الأرض بقصتك . كل شىء يتعوض من
 عدا الشرف .

روحى تجوزى واعملى صالحك وتركى بيروت . الله بيعت لها زلزلة ،
 ربت بقلبي علة وما لها دوا .

الله بوجه لك الخير يا بو سر كيس قديش قتللى حتى ودى وراك ورجعك
 وانا قلو : لا ، لا ، أنا بعرف شو مرباية وشو فى عندى . تفسيرها مسختينى
 وجرصتينى . وأكثر من هيك ما راح باكتب لك ولفهمك كفاية .

أملك الحنونة

أم شمونة

ما لحقت خلصت المكتوب أم شمونة حتى سمعت حس عجقه . افسكرت
 حدا جاني يسهر . لكن من بدو يحى بها الليل والناس للطواقى ؟ من الوخاصيته
 يقوم من حد المنفل ؟ اخيرو قامت فتحت لقت شمونة ومعها شب مللفين
 بالعبي . شهقت أم شمونة وغميت . طببت شمونة ع صدر أمها تبوسا وتحاكها
 وتتملا قومي شوفى بذك ، قومي تعرفى ع هالشب الظريف . بعد الجهد
 الجهيد وعيت الأم وما عادت عرفت كيف بدا تبوس بنتا .

— إياه احسن هذا يما ميك ؟

— الله يرضى عليك يا بنتى ويوفقك . هذا مش الدكنجى الى كنت

تكتيلى عنو ؟

— هذا هو بعينه وبعيناتو !

— وميك شو صفت حواله ؟

تركتو سهران هو وام الياس .

أغاني الضيعة

وهي مجموعة أشعار عامية نظمها الشاعر الشعبي إميل مبارك ، ابن الضيعة اللبنانية . وقد أجاد الشاعر في وصف القرية اللبنانية كما كانت القرية أيام جدودنا . ولكن الحياة تسير بسرعة والمدنية الغربية تغزو القرية النائية الرابطة على القمة والمختبئة في بطن الوادي . والجيل المخضرم أمثال الشاعر إميل مبارك يشعر بحنين مشوب بأسى على تلك الحياة القروية الهاتئة . وستبقى هذه الأشعار سجلا خالداً يقرؤه أبناء القرية بعد أجيال فيتعرفون إلى الحياة التي كان يحياها أجدادهم .

تففة خورى

على البحر المزدوج ذى الدعامتين وعدد المقاطع في الدعامة الواحدة ٧

يا ما نظمتهك أشعار
وكانت روى تناجيكى
يا ضيعا نمنا وزغار
يا ما لعبنا بواديكى
ما عاد الورد بنوار
ينفح عطر ويهديكى
ودهر الحط عليك وجار

ما عاد يذكر ماضيكي

ولادك هجوا من القلى
ما عاد قدروا حلوا الدين
تركوك ع هالتلى
بغصة قلب ودعه عين
عصافيرك عم بهلى
يفور اليدر بالغلى
وترجع بالجره تمللى
الحلوه من مزارب العين

عَالِضِيْعَا التَّرَكَّتْهَا النَّاسُ
يَا ذَنِي حَاجِي تَجْوَرِي
ذَوَقْتِيهَا مَرَّ الْكَاسِ
وَيَبْتَسُتُ وَرْدَ الْجَوَرِي
مَشْ بَاقِي إِلَّا شَمْسُ--اسْ
بِكْنِيسِي ، وَتَفْهَ خَوْرِي
وَالْبَعْدُو يَسْمَعُ قَدَاسِ
مِنْ الطَّاقَةِ عَصْفُورِ دَوْرِي
وَيَنْكَ يَا بَيْتِي الْمَهْجُورِ
يَا بَيْتِ جَدِي وَبَيْتِ بَيْتِي

ما في قرنة بالمعمور
متلك بتحن علي
شبايك ربو المنتور
بطاقاتك غنى العصفور
فيك عيوني شافو النور
وفيك بغمض عيني

ضيعتنا

البحر المزدوج

ضيعتنا غامرها النور
مشروعة عا زاس التل
مدخلها درج زهور
بتشوف جل بضمير الجل
بحواضا ورد ومنتور
بتضحكك لمن بتطل
ويدورن صوتو العصفور
عا شلال مؤبقتنا !

ضيعنا فيها راعي فقير
عيا ما عندو غيرا

يَتَلَقَّفُ فِيهَا بِكِيرٍ
وَبَيْقَعْدُ عَا التَّشْوِيرَا
وَبَيْصِيرٍ يَنْقُرُ تَنْقِيرِ
تَا تَسْكُرُ الْمِنْجَا
وَعَصَافِيرِ الْوَادِي تَطِيرِ
وَعَنُو تَرْدَدُ نَعْمَتَنَا !

سَنُونُو تَغْطُ مَقَابِلِي
لَا تَخَافْ مِنِّي وَلَا تَهَمَّ !
تَرْفُفْ حَوْلِي تَكَاغِيلِي
تَا تَفْهَمْنِي إِنَّا أَمْ

وَتَصِيرُ تَجْنِي بِحِيلِي
وَمِنْ صُوفِ الْغَنَاتِ تَلْمُ
وَتَحْسِبُ حَالًا مِنْ الْعِيَالِي
وَالِهَا حَقَّ بَطَاقَتَنَا !

وَالْقَمَرُ كَانَ لَوْ غَابِي
بَيْتَسْرَقَ وَبَيْتَسْرَقَا
مِنْ خَلْفِ الْجِبَلِ جَانِي
يَتَعَرَّشُ دَقَّةً وَدَقَّةً !
شَافَ الشَّمْسُ مَعَرَّائِي

تَقْرَها وَقْلاً : بَقاً
 غطست بالبحر نكابي
 وغابت عنا وتركنا !

والصبح مثل العادي
 غادي ومدحّخ بكير
 تايفر ل بعّب الوادي
 ويفيق العصافير
 شاف المرجى سجّادي
 خضرا وعليها فرافير
 غطّاها بشال زمادي
 وخلا الدني تحسّدنا !

وبتشوف الندي بنيسان
 عا مدّا المرج وطولو
 بتحسّب ، فوق الريحان
 الدني مشتاي لولو
 وفرافير لوان لوان
 من زهره لزهرة ، يقولوا :
 محلا العيشي بلبنان
 وشم هوا بضيعتنا !

مشتاق ارجع للضيعة^(١)

مشتاق ارجع للضيعة مشتاق كثير
إتعمشق لى بشى تينة وصيد عصفير !
عنت عا بالى الضيعة ويا ما مشتاق
عبي السلى ييكوعى وحوش جرجير !

* * *

مشتاق عادق المجوز ارعى العنزات
ومرشق ثوتات العودى وطعمى القزات !
مشتاق ارجع إتلقح تحت اللوزات !
وبسباح الضيعة أصلي الدبق بكير !

* * *

مشتاق ارجع عالضيعة شوف زفانى
واسرح بمروج الحضرا وجو الناقى
واسمع دجاجة متى عمبة — ااقى ،
ورافق جدى وبقراتو وأحلو النير !

* * *

مشتاق ارجع اتفرج عا بيت ببي
وموقدة السكت حدا مد جري !

(١) وهى على بحرین ، الدعامة الأولى على المزدوج ، وعدد المقاطع فيه ٧ ، والدعامة الثانية على المنساوى وعدد المقاطع فيه ٤ .

مشتاق صوف الصفصافي ونبع المي
حد البيت اللى تركتو أنا وزغير !

* * *

مشتاق ارجع عالصيحا صار لى زمان
تارك مرقى وولادى وكل الاخوان
مشتاق ارجع عالصيرى شوف الفدان
شوف الجحشى والنعجى والقراير !

قرادى

يا ضيعتنا مشتاقين كيك يا جارة صنين
حلوين ضياعو لبنان لكن قدك مش حلوين

* * *

نسيتى

(لأميل مبارك)

نسيتى يوم الكنازوح شوقك وتقليل
وهاك الشباك المفتوح المنو كنت توميل

* * *

نسيتى هاذاك المشوار دغوش تملّى جرتنا

ونسيتى بريق الفخار الشانق حالو بخيمتنا
وقدیش نخبہ أخبار وكانت حلوة عيشتنا
وع الموقد قدام النار من البلوطة تشويلي

* * *

النسب

دموعكم لا تمجبوها من الحاجر أسكبوها
واتركوا الزهرة اللطيفة الباكية تودّع أبوها

* * *

غيتك غيبى طويلة ضاع حلم الصبر منا
قلوبنا صارت ذليلة بس وجك غاب عنا
يا دموع العين سيلي غاب كوكب من وطننا
وما بقا باليد حيلة الموت ع المقتل طعنا

* * *

يا صحابي وقفوني ونص ساعة أمهلوني
أيجوا كل القرايب والحباب يودّعوني

الفهرست

الموضوع	صفحة
مشكلتنا اللغوية	١
ما هي اللغة	٧
كيف نشأت اللغة	١٢
اللغة والعرق والعقلية	٢١
علم اللغة	٢٥
أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي	٣٣
لغة ولهجة	٤٠
السلطة العليا	٤٢
كيف تنشأ اللهجة	٤٦
اللهجة وأسلوب دراستها	٦١
اللهجة اللبنانية	٧٦

[تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب : اللهجات
وأسلوب دراستها ، في مطبعة الرسالة بالقاهرة في يوم
الأربعاء ٢١ رجب سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٦ مارس
سنة ١٩٥٥ م] .

عبد المحمد علي حسن

مدير المطبعة